FIFTY YEARS A DETECTIVE

113

t.me/kotb_pdf

خمسُون عامًا محقق

(قصص واقعية)

توماس فرلونج

ترجمة: شيرين هنائي

دارك

ترجمات

خمسون عامًا محقق

حقائق غير منشورة عن أهم وأعظم تحقيقات السيد فُر، مع وقائع أخرى من حياته العملية الشاقة التي بدأها في 14 سبتمبر عام 1862، حين كان يعمل في شركته المسماة « بنادِق بنسلفانيا» والمعروفة باسم «طُعم الصيد»، وهي شركة مختصة بخدمات التحري.

مقدمة

لم يُنشر هذا الكتاب للتباهي بأي قدرة أدبية لدي؛ لم يخطر ببالي أن أكسب رزقي من القلم. مع ذلك، في طيات هذه الصفحات، حاولت بطريقتي وبأسلوبي أن أوضح للقارئ الحقائق غير المنشورة عن قضايا كبرى حققت فيها خلال خمسين عام من عملي في محاولات منع الجرائم، وتعقُّب الجناة وتسليمهم للعدالة. كم نجحت؟ سأترك الحكم للقارئ.

أنا اليوم – كما أعتقد - أكبر المحققين الذين استمروا في عملهم عمرًا، سواء في هذه البلاد أو البلاد الأخرى. خلال سني عملي الطويلة، حققت في قضايا هامة لا يعرف

القراء عنها شيئًا، لأن المؤسسات أو الأفراد الذين استعانوا بخدماتي لم يجلبوني لغرض ملء الصحف بتفاصيل مسلية تغري قرائهم.

خلال هذه الصفحات، سأخبرك كيف يدور العمل، وكيف نعثر على الأدلة ونستنتج منها معلومات. بعض القضايا التي سأعرضها هنا قد لاقت رواجًا كبيرًا على صفحات الجرائد، لكن لم يُسمح لكتاب تلك الأخبار بالخوض في حقائق تفصيلية عن سير العمل الجنائي. هذه الحقائق ستُكتب هنا للمرة الأولى.

استخدمت في هذا الكتاب تفاصيل القضايا الخارجة عن المعتاد، أو فيها كشوفات فريدة.

لم أضخم شيئًا من عمل التحقيقات، أو أهوِّل تفاصيل. الكتاب هو حكي مبسَّط لما قمت به بنفسي من تحقيقات، ولن ألمعهم كما قد يحاول الكاتب المُتمرس فعله مع المحققين الذين ينبتهم خياله.

أتمنى أن يخدم الكتاب الغرض الذي كتباه لأجله.

المخلص

توماس فُرلونج

إلقاء الضوء على العمل

العوامل الضرورية لصناعة محقق ماهر:

الأمانة، والمثابرة، والمُعدات القيمة.

قضية مقتل بريلر

بيانات حقيقية تنشر لأول مرة عن الطريقة التي جمعنا بها الأدلة التي أدت لإعدام مكسويل.

هيو م. بروكس

الشاب الإنجليزي الذي أعدم لقتله آرثر بريلر في الفندق الجنوبي.

وقع الحادث في صيف عام 1885، في واحدة من حجرات الفندق الجنوبي في سانت لويس. كلارينس بريلر كان شابًا مثله كمثل قاتله السيد هيو م. بروكس. اكتشاف الجثة،

واعتقال القاتل وتقديمه للعادلة ثم إعدامه، كان محل اهتمام العالم المُتحضر وقتها.

القصة خلف قناعة مرتكب هذه الجريمة البشعة لم تنشر من قبل.

هيو م. بروكس من ضاحية هايد بارك، إحدى ضواحي لندن، إنجلترا. والداه محترمان، يعملان في وظيفة التدريس. الشاب كان فى عمر الخامسة أو السادسة والعشرين حين ارتكب تلك الجريمة. لم يكن يفعل شيئًا في حياته سوى الذهاب إلى المدرسة، وبناء على ذلك فقد كان مثقفًا، وآخر ما درس كان القانون. هرب من الجامعة بعدما سرق الكثير من أغراض واحد من زملائه. نهيبته تألفت من بعض الحلي والتحف غير ذات القيمة، وقد رهنها جميعًا في ليفربول في إنجلترا ليجمع مالًا يكفي شراء تذكرة إلى بوسطن في ماساشوستس، الولايات المتحدة. بعدما ركب ما سيُقله إلى وجهته، قابل كلارينس بريلر.

كان بريلر موظفًا مرموقًا في شركة تصدير كبرى في لندن، ومهامه تتطلب السفر إلى كل أنحاء العالم، أو على الأقل زيارة المُدن الرئيسية. شاب هو، يقترب من عمر الثلاثين، وقد وجد صحبة بروكس الريفي صحبة لطيفة.

قدَّم بروكس نفسه على أنه رجل يحمل لقب النبالة، وقد أنهى تعليمه الجامعي، وقرر السفر في جولة عبر الولايات،

وأطلق على نفسه اسم مكسويل.

خلال الرحلة من ليفربول إلى بوسطن، أخبر بريلر مكسويل – وهو الاسم الذي سأطلقه عليه من الآن - أنه بعد انتهائه من عمل في بوسطن لصالح شركته، سيسافر إلى تورنتو في كندا يومًا أو اثنين، ثم سيترك تورنتو إلى سانت لويز في ولاية ميزوري ليقضي وقتًا قصيرًا لإنهاء صفقة عمل، ثم من هناك سيذهب إلى سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، فيبحر على أول سفينة بخارية إلى أوكلاند بنيوزيلاندا. قال له مكسويل إنه سيسافر من بوسطن إلى سانت لويس حيث سينتظر عودة بريلر من تورنتو، ثم يرافقه إلى أوكلاند، فقط لأجل الرحلة، وأسعد هذا العرض بريلر.

وصلا بوسطن بسلام، حيث قضيا يومين أو ثلاث معًا، وعرف مكسويل وقتها أن في حوزة بريلر مبلغ سبعمائة دولار.

بعدما أنهى بريلر عمله، دفعا فواتير إقامتهما في النُزُل، ثم افترقا، إذ سافر بريلر إلى تورنتو، ومكسويل إلى سانت لويس، وقد اتفقا أن ينتظر مكسويل في فندق هناك حتى يعود بريلر.

وصل ماكسيل الفندق، وحجز غرفة، ثم انضم إليه بريلر بعدها بيومين. أعتقد أنه وصل يوم السبت، ومكثا في نفس المكان.

في يوم الأحد التالي، بعدما تناولا عشائيهما وعادا إلى حجرتيهما، شكا بريلر من ألم في المعدة. ادعى مكسويل معرفته بالطب، وحقنه بجرعة كبيرة من المورفين تحت الجلد. بعد برهة من حقن الدواء، وملاحظته أن بريلر يلفظ أنفاسه الأخيرة، صبَّ أكثر من نصف زجاجة كلوروفوم بين شفتي بريلر المحتضرتين. حين مات الأخير، استبدل مكسويل ملابسه هو الداخلية بملابس المجني عليه. كان مكسويل رجلًا ضئيلًا، طوله حوالي خمس أقدام، بينما بريلر كان أضخم وأطول. طُبع اسم «هيو م. بروكس» على ملابس مكسويل الداخلية، وكانت صغيرة المقاس بشكل ملحوظ.

استخدم مكسويل مقصًا رفيعًا لقص ملابس بريلر الداخلية، ثم استطاع بطريقة ما إلباسه ملابسه هو، ثم أخلى حقيبة بريلر الكبيرة ودسَّه فيها، حتى إنه اضطر إلى ثني الجثة حول نفسها، لكنه في النهاية نجح فيما أراد. أغلق الحقيبة بالأحزمة والقفل، ثم وضع حاجيات بريلر في حقيبته هو، وذهب لينام.

بعد الإفطار في الصباح التالي، سوَّى حسابه، وأخبر موظف الاستقبال أن رفيقه في سفر خارج المدينة، وسيعود بعد يومين أو ثلاث، وقد طلب أن تُحفظ له الحجرة بمتعلقاته فيها حتى عودته. أضاف مكسويل أنه مضطر للمغادرة وأن رفيقه بريلر سيلحق بها.

طلب مكسويل من حمَّال الحقائب أن يحضر له حقيبته إلى

الممر، وهي الحقيبة التي كانت تحوي الجثة، لكن لسوء حظه، أحضر الحمَّال الحقيبة الأخرى التي بها حاجياته وحاجيات بريلر. انزعج للغاية، واضطر إلى أخذ الحقيبة إلى المحطة، وشراء تذكرة إلى سان فرانسيسكو. مكث هناك ليلة، وفي اليوم التالي اشترى تذكرة لأوكلاند، نيوزيلاندا، وأبحر بعد الظهيرة.

كان الجو دافئًا في سانت لويس، وخلال أيام بدأت الجثة في الحقيبة تتحلل. جذبت الرائحة خدم الغرف، فأخبروا الإدارة. اقتُحمت الغرفة ووجدوا المجني عليه، فأبلغوا الشرطة.

وصف العاملين في الفندق مكسويل، وأُرسِلَت برقيات بالتفاصيل إلى كل مكان، تطالب العثور على مكسويل واعتقاله.

تلقى رئيس شرطة سان فارنسيسكو، النقيب «ليس»، واحدة من تلك البرقيات، فارسل لمحققيه كي يتقصوا الأمر، وتوصلوا إلى أن القاتل قد أبحر إلى أوكلاند قبل ثلاثة أو أربعة أيام قبل وصول البرقية من سانت لويس. عندئذ، أبرق النقيب ليس إلى شرطة أوكلاند بوصف تفصيلي لمكسويل، وبرقم القمرة التي يشغلها في السفينة التي أبحر بها. بالطبع وصلت برقية النقيب ليف إلى أوكلاند قبل عدة أيام من وصول السفينة.

حين وصلت السفينة أوكلاند، أرسلت الشرطة اثنين من محققيها مع الرُبَّان الذي أرشدهما إلى حيث ينزل مكسويل. قبضا عليه بمجرد صعودهما على متن السفينة، وأبلغا السلطات في سانت لويس بناء على تعليمات النقيب ليس. بعد الانتهاء من إجراءات تسليم المجرم، أرسل رئيس شرطة سانت لويس محققين لإعادة مكسويل. رحل المفتشان إلى أوكلاند عن طريق سان فرانسيسكو، ووجدا مكسويل في السجن، فأعاده في رحلة طويلة باهظة التكاليف، نفقاتها على عاتق مدينة سانت لويس.

عند الوصول إلى سانت لويس، حُبس المجرم دون كفالة، بتهمة قتل بريلر. على الفور جلب المتهم محاميين للدفاع عنه، بعدما تشاور معهما، صار مبتهجًا للغاية حتى إن زملاءه في الحبس أبغضوه، وقد كان بطبيعته متعجرفًا، يعزل نفسه عن السجناء الآخرين. كان أيضًا متباهيًا، يجذب الأنظار، فراحت الصحف تكتب عنه وتفسح له صفحاتها، وقد أسعدته هذه الشهرة.

المحامي الجنائي الشهير أشلي س. كلوفر، مدعي سانت لويس العام، هو من قاضى بروكس الشهير بمكسويل، واشترك معه في المقاضاة المارشال ف. مَكدونالد مساعد المدعي العام. في ليلة طلبا مشاركتي، كنت وقتها رئيس العملاء الخاصين في شركة سكك حديد ميزوري، وكان كلا المحاميين صديقًا لي.

أقر السيد كلوفر أن سبب زيارتهما له علاقة بقضية مكسويل. قال إنه رغم استعادة مكسويل من أوكلاند وتكلفتها الباهظة، وجذبها لأنظار العالم، لم تبذل شرطة سانت لويس أي جهد لجمع أدلة حقيقية في هذه القضية. ليس معهم حتى الآن أدلة كافية لإصدار حكم في حال شهد الجاني أن إعطاء المجني عليه جرعة كلوروفورم قاتلة كانت عن طريق الخطأ. قال السيد كلوفر إنه يريد حقائق عن وقائع القضية.

- رغم أنه لا يوجد شك تقريبًا أن مكسويل قد قتل بريلر بجرعة كلورفورم زائدة، سيظل هناك احتمال أنه قد فعلها بحُسن نية. في هذه الحالة، وبحسب قوانيننا، لا يمكن أن يتهمه أحد بالجريمة، ولا يجب على أحد أن يفعل هذا في رأيي. وعلى العكس، لو ثبت أنه تعمَّد إعطاء المجني عليه هذا العقار بغرض قتله، فسيُدَان. لو أنه فعلها دون نية قتل، فسأضطر لطلب تبرئته من هيئة المحلفين. كما قلت، لو أنه مُدان فواجبي كمُدعٍ عام أن أثبت ذلك. الآن يا توم، أريدك أن تعثر على الأدلة لأجلي.

أجبته:

- سيد كلوف، أنا بالفعل لا أعرف شيئًا عن هذه القضية إلا ما قرأته في الصحف، وتعرف كما أعرف أن المرء يعجز عن جمع معلومات بناءً على ما تكتبه هذه النوعية من المنشورات؛ لذا، أود أن أطلب منك بعض الوقت لأفكر. أنا

أوافقك رأيك عن القضية، ومن دواعي سروري أن أساعدكما بكل جهدي.

طلب مني الرجلان أن آخذ الموضوع بعين الاعتبار حتى موعدنا في الليلة التالية في الثامنة مساء، حين يتواصلا بي ليتحدثا عن الأمر مرة أخرى.

زاراني في الموعد المحدد الليلة التالية، وكانا قلقين من رد فعلي بخصوص تولي التحقيق في القضية. بعد التحيات العادية، قلت:

- أيها السيدان، فكرت في القضية موضع النقاش، توصلت إلى أن هناك شخصين فقط يعرفان كل التفاصيل المتعقلة بما حدث، وما تريدان معرفته. واحد منهما في السجن، والآخر ميت. في رأيي، مكسويل هو الوحيد الذي يعرف التفاصيل، وبهذا يكون هو الشخص الوحيد الذي نستطيع استخلاص الأدلة منه. أعتقد أن في وسعي معرفة هذه المعلومات منه، لكن ليكن في حسبانكما أيها السادة الأفاضل أنني أعمل موظفًا في شركة سكك حديد ميزوري، وبالطبع هم يدفعون لي راتبًا مقابل وقتي بالكامل؛ لذا أقترح أن أرشح لكما محققًا يؤدي هذه المهمة تحت إشرافي، ولو كان هذا العرض مناسبًا لكما، سأكون مسرورًا أن أؤدي أي مهمة تساعدكما في كشف لغز هذه القضية، مع العلم أنني لن أتلقى مقابلًا ماديًا مقابل هذا، لكنني أتوقع أن تدفعا للمحقق ما ندفعه نحن، بالإضافة إلى مصروفاته.

قال السيد كلوفر:

- توم. لا يوجد أي تمويل من المدينة لدفع رواتب من نستعين بهم من خارج دائرة الشرطة، لكني سأدفع هذه التكاليف من جيبي الخاص، وأصر على أن أدفع لك مقابل خدماتك.

ردَّدت عليه:

- لن أتلقى شيئًا مقابل ما سأقدم في هذه القضية.

في هذه المرحلة من النقاش، قال السيد مَكدونالد الذي ظلَّ صامتًا يستمع إلى حديثي والسيد كلوفر:

- توم، كيف تتوقع أن تحصل على الأدلة في هذه القضية؟ هذا ما أود أن أعرفه.

أجبته:

- سيد مَكدونالد، أرى أنه من الأفضل أن أبدأ عملي مباشرة، بدلًا عن تفصيل كيفية القيام به.

قال السيد كلوفر بعدها:

- توم، سأضع أمر هذه القضية بين يديك. أريدك أن تبدأ التحقيق أسرع ما يمكن؛ محاميا الدفاع يطالبان بالمحاكمة في أسرع وقت، ولا أريد أن أبقيهما على انتظار مطولًا. أدِّ مهمتك بطريقتك، وسأدفع.

قلت:

- اتفقنا.

في اليوم التالي أرسلت برقية إلى فيلادلفيا لموظف لدي، وكان غريبًا تمامًا عن سانت لويس. طلبت منه أن يأتي إلى منزلي فورًا بمجرد وصوله المدينة، وكذا فعل.

اسمه جون مَكلُّوش، في الخامسة والثلاثين من عمره، طوله خمس أقدام وعشر بوصات، ووزنه مائتا رطل. متين البنية ذو شعر وبشرة فاتحي اللون، وهو كذلك وسيم، له سالفان طويلان للغاية، وشارب، ويبدو كأحد النبلاء.

صادق هو وأمين، لكنه عنيد إلى حدٍّ ما، أو يمكن القول أنه بطيء الفهم. اضطررت إلى أن أفصل كل تعليماتي بدقة، حتى بدا لي أحيانًا أنني أحتاج إلى إزميل لحفر التعليمات في عقله، وبمجرد أن أفهم، أمرته أن يتبع التعليمات بكل دقة.

والآن، سأدع القارئ ينفذ إلى قلب خطتي، وهي تتلخص في إرسالي مَكلُّوش إلى داخل السجن، حيث سيقابل مكسويل دون علم الشرطة المحلية.

بعدما شرحت له طبيعة المهمة، طلبت منه مراجعة ما نُشر عن القضية في صحف سانت لويس منذ وقت الجريمة، وأن يقرأ كل سطر كُتبَ عنها، وقد تطلب منه الأمر ثلاثة أسابيع، قابلته كل ليلة خلال هذه الفترة،

وراجعت معه ما أريد منه أن يفعل منذ الوقت الذي سيُلقى فيه القبض عليه، وكيف سيتصرف من وقتها حتى وصوله السجن.

في بداية فبراير 1886، استطعت الحصول على عدة شيكات غير مكتوبة من مكتب الدكتور سميث، أمين صندوق شركة سكك حديد ميزوري، وبصفتي رئيس العملاء الخاصين في الشرطة، فمسموح لي التردد على مكتب أمين الصندوق، ولم أجد صعوبة في الحصول على الشيكات كوني مألوفًا لدى الأمين والعاملين في الشركة جميعًا، وهذا بالبطبع كان دون علم الدكتور سميث، كما يُطلَق عليه.

رئيس الكَتَبة خطاط ماهر، يألف توقيع دكتور سميث، وطلبت منه أن يتمرن على تقليده، ورأيت أنه برع في ذلك حتى إن أي موظف بنك سيقبل به على أنه التوقيع الحقيقي، ورغم أنني أردت تقليدًا بارعًا للتوقيع، فأنا لا أريد أن يكون من الجودة حتى يقبل به موظف بنك. بالتمرين، استطاع أن يتوصل إلى توقيع يفي بغرضي، وطلبت منه ملء أحد الشيكات بمبلغ ألف ومائة وثلاث وثلاثين دولار، وعشرة سنتات. بعدها أعطيت مَكلُّوش هذا الشيك بتعليمات أن يعطيه لموظف الخزينة في أحد البنوك في شارع رقم أربعة. كان عليه أن يقدم هذا الشيك في تمام الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة في اليوم التالي. كنت قد تلقيت شيكًا منذ يومٍ أو يومين يحمل توقيع دكتور

سميث الأصلي، ووقفت أنتظر عبر الشارع ومعي الشيك، حتى رأيت مَكلُّوش – وسأدعوه من الآن فصاعدًا باسم فرانك دينجفيلتر، وهو الاسم على الشيك- يدخل البنك.

اتجه دينجفيلتر على الفور إلى الصرَّاف السيد وارنر وأبرز الشيك. فحص وارنر الشيك بدقة كونه يحمل هذا المبلغ الكبير، بالإضافة إلى كون دينجفيلتر رجلًا غريبًا.

منحت دينجفيلتر وقتًا، ثم دخلت البنك، هنا رآني وارنر وناداني كي أعتقل هذا الرجل عند الشباك، وهو يشير إلى دينجفيلتر.

قلت:

- ما تهمته؟

رفع وارنر الشيك وهو يقول:

- هو قدِّم لي شيكًا مزورًا يحمل توقيع دكتور سميث. شيكًا بمبلغ ألف ومائتين دولار تقريبًا. هل تعرف توقيع دكتور سميث؟

- أجل. هذا واحد من الشيكات الذي يحمل توقيعه، وقد رأيته يوقع عليه بنفسه.

قارن الشيك المزيف بالآخر. قلت للسيد وارنر:

- لست خبيرًا في الخطوط، لكن لا أظن هذا توقيع الدكتور سميث.

سألت دينجفيلتر:

- من أين حصلت على هذا الشيك؟

- من الدكتور سميث.

- وهل يعرفك الدكتور سميث؟

أجاب بطريقة خشنة:

- أجل. هو يعرفني.

- هلا أتيت معي لمقابلته؟

- حسنًا.. لا أعرف إن كنت سأرافقك أم لا، فأنا لا أعرفك.

وضعت يدي على كتفه وقلت:

- إما أن ترافقني إلى دكتور سميث أو إلى سيارة دورية الشرطة، فترسلك إلى الحبس.

سألني:

- هل أنت شرطي؟

- أجل، أنا رئيس العملاء الخاصين في شركة سكك حديد ميزوري.

- آه، حسنًا. هذا أمرٌ مختلفٌ. سأذهب معك لمقابلة دكتور سميث.

كان هذا الصباح ممطرًا، والطرقات مبتلة زلقة، فلم تكن شوارع سانت لويس وقتها نظيفة مثل الآن. أخذت الشيك المزيف والسيد دينجفيلتر وقصدت مكتب دكتور سميث، الذي كان وقتها في مبنى الشركة الرئيس عن تقاطع شارعي لوكوست وشارع رقم ستة. حين وصلنا تقاطع شارع باين مع شارع رقم ستة، أعطيت دينجفيلتر إشارة ليلكمني. «بوكس» كما يطلق عليه العامة.

وقف رجل دورية ضخم بالقرب منا عند صالون حلاقة، مرتديًا معطف مطر. لكمني دينجفيلتر بقوة أسفل عيني اليمنى كما اتفقنا، ونجح في إسقاطي أرضًا، ورأيته من مسقطي يتعثر ويكاد يهوي هو الآخر كي يمنح رجل الدورية فرصة الوصول إلينا. لكني كنت أعلم بطئه، فأردت أن أمنحه فرصة الإمساك بدينجفيلتر. سقطت أرضًا وشعرت بدوار حقيقي إثر الضربة، وسقط دينجفيلتر جواري. اقترب رجل الدورية منا ببطءٍ كأنه شاحنة تصعد تلًّا، في النهاية نجح في الإمساك به بعدما قاومنا نحن الاثنان. أمسك دينجفيلتر في نفس الوقت الذي أمسكته فيه. صارع الأخير ومزق ملابس الشرطي ومعطفي وياقة قميصي. سقط ثلاثتنا نتمرغ في الوحل حتى استطعنا أخيرًا إخضاع دينجفيلتر، لكني كنت راضيًا عن أدائه أثناء محاولته الخلاص منا، فهو رجل قوي.

مكتبي شمال شارع باين، في شارع رقم ثمانية، وقد حدث

هذا الصراع على بُعد مبنيين من مكتبي. بعدما أخضعناه، اقترحت أن نذهب إلى المكتب للنظف أنفسنا بينما ننتظر سيارة دورية تأخذ المجرم إلى قسم الشرطة. بعدما وصلنا مكتبي، سلمنا دينجفيلتر إلى ثلاثة موظفين هناك، وذهبت أنا والشرطي نغسل الطين من وجهينا ومن داخل أنفينا وآذاننا. اكتشفت أن جانب وجهي الأيمن مزرقًا إثر سقوطي على الرصيف، بالإضافة إلى خدوش صغيرة ملتهبة.

قال العميل الذي ذكرته من قبل؛ فيليبس، لدى مرآى وجهي:

- يجب أن يعاينك طبيب فورًا. حالة عينك سيئة وتحتاج إلى تدخُّل طبي سريع. دعني أصحب هذا الرفيق إلى المخفر، وسأتابع القضية نيابة عنك.

شكرته، وتمنيت لو يستطيع فعل ذلك. حكيت له ما حدث في المصرف، وطلبت منه كتابة شكوى ضد دينجفلتر بناء على ذلك. في الوقت المناسب، حضرت سيارة الشرطة، واصطحب العميل فيليبس السيد دينجفلتر إلى المخفر.

في هذا الوقت، كان هوِّي أونيل رئيس المفتشين، والعمدة لورانس هاريجان يشغل منصب رئيس شرطة مدينة سانت لويس.

بمجرد وصول دينجفلتر إلى مكتب المفتشين، فتشه على الفور الرئيس أونيل ورجاله. وجدوا في واحدٍ من جيوبه

الداخلية خطابًا مغلقًا مختومًا، ويبدو أن دينجفلتر نسي أن يرسله.

عنوان الإرسال سان فرانسيسكو. وجدوا أيضًا خمس وسبعين دولارًا، وفي أوراق أخرى ذُكر أنها مئة دولار، وقد صودرت منه الأموال وأودِعت في خزينة الشرطة.

فُتِح الخطاب قُرئ. الخطاب طويل، كمثل خطابات المحتالين الذي يرسلونهم إلى بعضهم البعض. من خلال الخطاب، عرفوا أن هناك عصابة احتيال على البنوك تعمل منذ فترة، وتنفذ خططتها في مدن ساحل المحيط الهادي. كانت الصحف تكتب كثيرًا، ولمدة أسابيع، عن هذه العصابات في الفترة التي تسبق كتابة هذا الخطاب. ولهذا السبب، ظن مفتشو الشرطة أنه أيديهم قد وقعت على أدلة ستقودهم إلى اعتقال محتالي البنوك.

نُشر محتوى الرسالة في صحف المساء، وبعض هذه الصحف لامتني على عدم اكتشاف هذا الخطاب.

بعدما قرأت تعليقات عن الخطاب في الصحف، كنت لأعتبر نفسي بالغ الغباء بالفعل لأنني فوَّتّ اكتشاف الخطاب، لأنه لم يكن هناك وقت لتفتيش السيد دينجفلتر قبل مهاجمتي والشرطي الآخر في شارع باين. أنا كذلك أعرف أنني من كتبت هذا الخطاب ونسَّقته جيدًا ليفي بالغرض منه.

حُبس دينجفلتر بالطبع، وحُدَّد وقت جلسة الاستماع الابتدائية الخاصة بقضيته لتكون بعد بضعة أيام.

في نفس الوقت، أفردت صحف سانت لويس مساحات كبيرة لدينجفلتر وجريمته المزعومة، وكان هذا بمثابة إجازة لقراء الصحف من القراءة اليومية عن أخبار مكسويل وما سيفعله محاموه به.

منذ وقت اعتقال دينجفلتر حتى موعد محاكمة مكسويل، لم تذكر الصحف اسم الأخير إلا نادرًا، وبعضها ذكرت اسمي في سياق ساخر كوني أحمق كفاية لتفويت الخطاب.

حين استدعي دينجفلتر لجلسة الاستماع الابتدائية، كان قد حُبس في السجن سريعًا في انتظار حُكم هيئة المحلفين العظمى، وأحيط بالمحامين الذين تاقول للدفاع عنه، لكنه رفض عروضهم، وقال لهم إنه قد اختار محاميه بعناية، ورفض الكشف عن أسمائهم.

في اليوم التالي لاعتقاله، سُمح له بالاختلاط بالسجناء الآخرين فيما يُسمى بحلقة مصارعة الثيران، وهو الوقت الممنوح للسجناء يوميًّا لممارسة التمارين الرياضية. لاحظ مكوسيل على الفور أن انتباه الصحف قد صُرف فورًا إلى دينجفلتر بعد اعتقاله مباشرة، ونسوه تمامًا، لذا سارع إلى التعرف على هذا الشقي الشهير سيئ السمعة حين تقابلا في حلقة مصارعة الثيران، وهي الفرصة الوحيدة للقائه.

من وقت أن وقعت عينا مكسويل على دينجفلتر، لم يفوّت فرصةً للحديث معه، والتصق به كما تلتصق الحشرة بالحصان.

في المرة الأولى التي اقترب فيها مكسويل من دينجفلتر، هرع إليه وقال:

- أنت دينجفلتر على ما أعتقد.

أجاب دينجفلتر أنه هو، فقال مكسويل:

- يبدو أنهم قد أحكموا حولك القضية.

قال دينجفلتر:

- اعذرني يا سيدي، ولا تظنني وقحًا. لكن لا يجب أن أتحدث عن أي شخص هنا بخصوص قضيتي، على حد تعبيرك. لن يفيدني أو يفيد أي شخص آخر الحديث عن اتهام مُعلَّق ضدي في مكان كهذا. سأكون مسرورًا لو تحدثت معك في أي أمرٍ آخر، على ألا نتطرق إلى القضية ضدي. إلى جانب هذا كله، أنا لا أعرفك.

قال مكسويل سريعًا:

- أوه، أنا مكسويل، الرجل المُدان بقتل شاب يدعى بريلر في فندق. وجدوا الجثة في في حقيبة كبيرة. ألقوا القبض عليَّ في أوكلاند، نيوزيلاندا، وأعادوي إلى سانت لويس لأنتظر المحاكمة. طمأنني محاميي أنني سأنجو

من القضية؛ لا توجد أدلة ضدي. سيُفرج عني مباشرة بعد المحاكمة.

قال دينجفلتر:

- أنت مكسويل إذًا. قرأت عنك كثيرًا في الصحف. اعذرني لو قلت لك إنك تتكلم أكثر من اللازم عن قضيتك. لو كنت بريئًا من التهم التي نُسِبت إليك، فالمفترض أن يُطلق سراحك. أو هكذا أتمنى.

بعد الحديث الأول بين مكسويل ودينجفلتر، رأى السجناء الآخرون أن الأخير شخص حذر ذكي، حكيم بشكل استثنائي. مكث دينجفلتر في السجن سبعة وأربعين يومًا، لم يفوّت مكسويل خلالها فرصة للحديث معه إلا واغتنمها.

تلقيت تقارير يومية من عميلي، وهي مهمة أراها صعبة للغاية، وازدادت صعوبة وصول التقارير بعد تعطل قطارات الجنوب الشرقي في الرابع من مارس 1886، وظلّت معطلة خلال فترة إقامة دينجفلتر في سجن سانت لويس.

بحسب وظيفتي في رئاسة العملاء الخاصين لحساب جولد سيستم، انشغل وقتي في حماية خطوط السكة الحديد الخاصة بالشركة من المجرمين الذين لا يكفُّون عن ارتكاب الجرائم والتخريب، مستغلين العطل. ظللت مشغولًا طيلة الليل والنهار بهذا الأمر.

من خلال تقارير دينجفلتر اليومية، عرفت أن دينجفلتر

قد اعترف بقتل بريلر لسرقة مبلغ سبعمائة دولار كان يعرف أنها في حوزته، بعدما أظهرها له في بوسطن قبل افتراقهما. اعترف كذلك أنه قد نهبَ المال الذي سافر به إلى الولايات المتحدة، وقد أوهم بريلر أنه من عائلة مكسويل ذات الأصل والنبالة. ذكر مكسويل أيضًا أن اسمه الحقيقي هيو م. بروكس، وأنا يريد أن يتعلم من نصاب محترف مثل دينجفلتر، وذلك بعدما يُفرج عنه في المستقبل القريب.

أخبر دينجفلتر بالتفصيل كيف قتل بريلر عن طيق جرعة زائدة من المورفين حقنها تحت جلده، وكيف أن بريلر قد اشتكى قبلها من ألمٍ في البطن بعد العشاء الدسم، وكانت هذه هي الفرصة لينفذ مكسويل خطته لقتل بريلر وسرقة ماله. كان قد زوَّد نفسه بكمية كبيرة من المورفين مع محقن طبي، وقد اشترى أيضًا أربع أونصات من الكلورفورم المخدر بغرض استخدامه بشكل مباشر على بريلر قبل موته، ليمنع جثته من التصلب المتوقع بعد الوفاة.

قال مكسويل وهو يشرح لدينجفلتر:

- كان عليَّ أن أخفي جسده في الحقيبة التي لن تتسع لطوله مفرودًا، ولم أشأ أن أقطع أوصاله، خشية أن تفضحني آثار الدماء.

باستقبال تقرير دينجفلتر بخصوص استخدام المورفين

في الجريمة، أرسلت على الفور أخبر السيد كلوفر والسيد مَكدونالد. نسق السيدان مع طبيبين من أمهر أطباء سانت لويس لفحص جثة السيد بريلر بحثًا عن آثار مورفين.

ذهبنا - أنا والسيدان والطبيبان ونائب عن إدارة مقابر بيلفونتين- إلى المدفن حيث جثة بريلر، وأخرجنا الرفات. أجرى الطبيبان الفحوص اللازمة واحتفظا بما توصلا إليه لنفسيهما، ولم يتحدثا عن أي شيء حتى استدعيا إلى محكامة مكسويل، حيث صرَّحا أنهما تأكَّدا من وجود أثر حقن تحت الجلد، وبقايا من عقار المورفين.

حين اعتُقل مكسويل، وجدوا بحوزته كمية من المورفين ومحقنًا طبيًّا، لكن حتى هذه اللحظة، لم يربط أحدٌ بين هذه الأشياء والجريمة؛ كانوا يعتبرون أن سبب وفاة بريلر هو الكلوروفورم.

بالطبع لم يعرف أحد بأمر إخراج الجثة والإجراءات التي تمت عليها إلا السيدان كلوفر ومَكدونالد والطبيبان ونائب إدارة المقابر وأنا، وكنا نعامل الأمر على أنه سر مقدس.

بعدما مكث دينجفلتر وقتًا في السجن، واستخلص المعلمات التي نريد، لم أجد سببًا لإبقائه هناك، لذا دبَّرت أمر خروجه بكفالة، قُدِّرت بثلاثة آلاف وخمسمائة دولار. وقَّع على الكفالة صديقي القاضي السابق هنري د. لافلين، ولم أدعه يعرف أن لي علاقة بدنجفلتر.

بمجرد خروجه، أرسلته على الفور إلى نيويورك، ليبدأ مراسلة أصدقاء مكسويل. قبل مغادرته السجن، سأل مكسويل إن كان يستطيع حفظ سر، فأكده له أنه يستطيع. قال دينجفلتر:

- أتوقع أن أغادر هذا المكان قريبًا.

سأل مكسويل:

- كيف ستغادره؟

أجاب دينجفلتر:

- ليس هذا من شأنك. قلت إن في وسعك حفظ الأسرار، وأول ما تفعله هو أنك تفتش في خصوصياتي بسؤالك عن كيفية خروجي. بعد رحيلي من هنا ستعرف، لكنك لو عرفت سبب خروجي من هنا، لن يكون في وسعك أن تخبر أحدًا. لذا، الأفضل ألا تعرف شيئًا غير الذي قلته أنا بالفعل.

اعتذر مكسويل ووعد ألا يكون فضوليًا بعد الآن. حينها قال دينجفلتر:

- والآن يا مكسويل، بعد أن أخرج وأبتعد عن هذا المكان، سأفعل أي شيء لك لو كان في إمكاني.

قال مكسويل:

- يمكنك أن تفعل الكثير. مثلًا، أرسل لي صديقين لك،

يشهدان في محاكمتي أنهما قابلاني وبريلر في بوسطن، وأنهما رافقانا إلى المحطة عندما غادرنا بوسطن، وأنني عرضت أن أدعو الجميع إلى شراب وداع، فذهبنا نحن الأربعة إلى مقهى وطلبتُ زجاجتي شامبانيا، ودفعت ثمنهما بمالي الخاص، وأنهما قد رأيا في حوزتي سبعمائة دولار حين أبرزتها لأطلب استبدال فئة أصغر من العملة بمائة دولار منها، لدفع تكاليف السفر إلى سانت لويس. لو أنهم شهدوا بذلك، فستكون هذه الشهادة مبررًا لوجود المال الذي سرقته من بريلر، وأنا المال كان معي قبل وفاته.

سأل دينجفلتر:

- هل أنت واثق أن المحامين لو يورطوا أصدقائي في مشاكل، أو يجعلوا الشرطة تتبعهم لو أنني طلبت منهم الحضور؟

أكَّد مكسويل لدينجفلتر أن صديقيه سيكونان في أمان لو حضرا إلى سانت لويس، وأن الشرطة لن تقترب منهما، مؤكدًا على أنهما لن يكونا معروفين لدى الشرطة هنا.

أخرج بطاقة من جيبه تحمل اسمه، ومزقها إلى نصفين، وأعطى دينجفلتر نصفًا منها واحتفظ لنفسه بالنصف الآخر، ثم قال:

- تأكد من أن تعطي الشاهدين نصف البطاقة كي يتعرف عليهما المحامون خاصتي لدى وصولهم إلى هنا، لأن نصف

البطاقة معهما ستكمل نصف البطاقة معي.

خرج دينجفلتر من السجن في الساعة الخامسة مساءً، بعدما دُفِعت الكفالة. في هذه الساعة انتهت قضايا اليوم، وأجِّل الباقي إلى يوم لاحق، وانصرف الصحافيون والمراسلون وكل من في المبنى، ومكث فقط بعض الموظفين الذين لديهم مهام يؤدونها. هكذا غادر دينجفلتر السجن دون أن يراه أحد، ثم عرج عليَّ في بيتي عبر طريق غير مطروق، حيث مكث ما تبقى من اليوم حتى غادر في ساعة متأخرة من الليل ليلحق قطار نيويورك.

نصحته بإرسال رسالة إلى مكسويل حين يصل نيويورك، كي يرسل له الأخير تعليمات واضحة بما يريد أن يشهد بها الشاهدان حين يقفان أمام القاضي يوم المحاكمة.

نفذ ما طلبت منه، ووصلت خطاباته إلى مكسويل عبر محامي الأخير، ووصلته خطابات مكسويل بنفس الطريقة. في الوقت المُناسب أرسِلت كل المراسلات بينهما لي بالإضافة إلى تقاريره الخاصة. دارت تلك المراسلات بينهما حتى قُبيل محاكمة مكسويل. طلبت من دينجفلتر أن يظهر في سانت لويس صباح يوم المرافعة، كذا فعل.

حين وصل إلى هنا، أقام في نُزُل. دعم كونه غريبًا عن المدينة تخفيه، فلم يعرف أحد بوجوده إلا محاميي مكسويل والسيدان كلوفر ومَكدونالد.

في يوم المحاكمة، وقف مكسويل يدافع عن نفسه، وشهد أنه قد استخدم الكلوروفروم مع صديقه بريلر ليلة وفاته بهدف تخفيف الألم الذي اشتكى منه الأخير. تنبَّأ السيدان كلوفر ومَكدونالد أنه سيشهد بهذا بالضبط. شهد مكسويل أيضًا أن معاناة بريلر مع التقلصات المريئية كانت متكررة.

بعد سماع شهادة مكسويل، قُرر إخراج جثة بريلر مرة أخرى، ليفحصها الطبيبان، فيؤكدان أو ينفيان مزاعم مكوسيل؛ هذه إحدى النقاط الحيوية في هذا القضية.

بعد إخراج الجثة وفحص أعضائها بدقة، أقرت اللجنة الطبية بما لا يدع مجالًا للشك أن بريلر لم يعانِ التقلصات المريئية.

أول من استُدعي للشهادة فرانك دينجفلتر. حين نُودي، دخل قاعة المحاكمة من باب مكتب ممثل الادعاء. أقسم ثم اتخذ مقعده خلف منصة الشهود. بعدما جلس، أدار وجهه نحو المحامي مَكدونالد الذي يؤدي مهام الملاحقة القضائية للولاية.

تحقق مكسويل جيدًا من مظهر دينجفلتر لأول مرة منذ افترقا. من حيث أجلس، راقبت وجه مكسويل جيدًا، وحين رأى دينجفلتر تعرَّفه على الفور. شحُب وجهه وكاد يفقد الوعي ويسقط عن كرسيه لولا دعم محاميه الجالس جواره. همس لمحاميه بشيء، فنظر نحو دينجفلتر وقد عرف أن

مكسويل عرفه، عندئذ تحمَّس محاميو الدفاع.

سأل المحامي مَكدونالد دينجفلتر الأسئلة التالية، وجاءت إجاباتها على هذا النحو:

السؤال: ما اسمك؟

الإجابة: أ. جون ف. مكُّولوش.

السؤال: أين وُلِدت؟

الإجابة: ويلمنجتون، ديلاوير.

السؤال: كم عمرك؟

الإجابة: ثلاثون عام.

السؤال: ما عملك؟

الإجابة: مُحقق وتحرٍّ خاص.

السؤال: مَن أوكل إليك هذه القضية؟

الإجابة: توماس فُرلونج.

السؤال: هل تعرف المُتهم في هذه القضية؟ (وأشار نحو مكسويل).

الإجابة: نعم يا سيدي.

السؤال: متى قابلته أول مرة؟

الإجابة: في سجن المدينة.

السؤال: هل كنت سجينًا في سجن المدينة؟

الإجابة: نعم يا سيدي.

السؤال: ماذا كانت تهمتك؟

الإجابة: أعتقد أنني قد اُتهمت بالتزوير.

السؤال: متى وأين اعتُقِلت؟

الإجابة: في المصرف عند تقاطع شارعي باين وشارع رقم أربعة في هذه المدينة، واعتقلني توماس فُرلونج، ثم ساعده في اعتقالي شرطي آخر لا أعرف اسمه.

السؤال: لماذا اعتقلك فُرلونج؟

الإجابة: طلب منه الصرَّاف اعتقالي.

السؤال: لماذا طالب الصرِّاف باعتقالك؟

الإجابة: لأنني أبرزت شيكًا يحمل ما يفترض أنه توقيع السيد سميث، مدير خزينة شركة ميزوري باسيفيك لسكك الحديد. زعم الصرَّاف لفُرلونج في حضوري أن التوقيع مزوَّر.

السؤال: هل كنت تعرف أنه مزوَّر؟

الإجابة: لم أكن أعرف.

السؤال: من أين حصلت على هذا الشيك؟

الإجابة: أعطاه لي السيد فُرلونج وطلب مني تقديمه للمصرف، ففعلت، وقال إنه سيكون في المصرف وقتما أبرزه.

السؤال: هل كان السيد فُرلونج هناك؟

الإجابة: أجل، دخل البنك بينما أنا واقف عند نافذة الصرَّاف، وهنا طلب منه السيد وارنر -كما أعتقد أنه اسمه- اعتقالي.

السؤال: إذًا أنت لم تكن تعرف إن كان الشيك مزوَّرًا؟

الإجابة: كلا يا سيدي. كنت فقط أتبع تعليمات لسيد فُرلونج. أعتقد أنه أفضل من يخبرك عن الشيك.

ازدحمت قاعة المحكمة، وبمجرد أن شهد دينجفلتر أنه واحد من محققي، هرع واحد من مفتشي المدينة إلى مكتب رئيس الشرطة عند الجهة الأخرى من المبنى، وأخبره بما حدث، فانطلق رؤيس الشرطة برفقته إلى قاعة المحكمة.

سرى الذعر بين السُّلطات في مجمع المحاكم الأربع. ظلَّ دينجفلتر يظهر خلف منصة الشهادة ليومين، وطيلة هذه الفترة، اعترض محاميو المتهم على كل سؤال وجهه محامي الادعاء لدينجفلتر.

من الآن فصاعدًا سأعود لاستخدام اسم مكُّلوش، وأحكي لكم ما حدث بعدما أنهى شهادته، واستدعوني أنا للشهادة.

بعد القَسَم وإلقاء محامي الادعاء الأسئلة المبدئية على مسامعي، وضحت للحضور دور السيدان كلوفر ومَكدونالد –القاضي نفسه- فيما فعلته في هذه القضية. حكيت تفاصيل خطتي منذ البداية حتى هذه اللحظة التي أمثل فيها أمام القضاء.

قاطعني محاميو المتهم مرارًا حتى أنهيت شهادتي المباشرة، بدأ محاميو الدفاع سؤالي واستجوابي ليوم ونصف يوم.

أراد محامي الدفاع في البداية أن يعرفوا كم أمضيت في مجال التحقيقات والتحري، وأجبت أن أولى ممارستي لعملي كانت في سبتمبر 1862.

قال المحامي:

- إذًا لديك خبرة عظيمة؟

أجبته أن لدى بالفعل خبرة طويلة، فقال:

- متى حصلت على هذا الشيك؟

وأبرز الشيك محل السؤال. طلبت الإذن في فحص الشيك، فقبل القاضي. بعدما فحصته مليًّا قلت:

- هذا واحد من الشيكات الخالية التي أخذتها من مكتب دكتور سميث، بغرض تنفيذ الخطة التي شرحتها سابقًا.

السؤال: إذًا سرقت هذا الشيك من مكتب الدكتور سميث؟

الإجابة: أخذت هذا الشيك الخالي من مكتب الدكتور سميث دون علمه أو موافقته.

السؤال: مَن ملأ هذا الشيك ووقَّع باسم دكتور سميث؟

الإجابة: ملأ هذا الشيك واحد من موظفي. وقفت جواره وهو يملؤه، وفعل ذلك بأمرٍ مني وبتعليماتي، ولو رفض تنفيذ أوامري لكنت رفدته، وهو يعرف هذا، ولو أنه قد وقع خرقًا للقانون، فأنا المسؤول عنه بالكامل.

أصر المحامي على التصريح باسم الشخص الذي ملأ الشيك، لكن المحكمة رفضت طلبه، كوني قد تحملت المسؤولية كاملة. قال محامي الدفاع وقتها:

- هل تعرف أنك تخرق القانون بأمرك أن يُملأ هذا الشيك بهذه الطريقة التي وصفتها؟ هل تعرف أم لا؟

أجبت:

- في بعض الظروف، قد يُعتبر هذا خرقًا للقانون.

سأل مستشار الدفاع:

- هل تعرف أن ما فعلت تزوير؟ وأن التزوير مُجرَّم بموجب القانون؟

أجبت نفس الإجابة السابقة، وقلت إن التزوير في ظروف وبشروط معينة يُعتبَر جريمة، لكنه أصر على أن أجيب

إجابة مباشرة بنعم أو لا.

هنا استأنف محامي الادعاء، وقال للقاضي إن الشاهد لن يتمكن من إجابة السؤال بنعم أو لا ما لم تترك له الفصرة لتوضيح الظروف والشروط التي لمَّح لها. أمري القاضي أن أوضح الظروف التي لا يُعتبر التزوير تحتها جريمة.

أجبت أن النوايا هي روح الجريمة، وأن أحدًا لم ينتوِ الحصول على مالٍ أو مزايا أو مقابل من أي نوع عن طريق تزوير هذا الشيك. وأكدت أنني المسؤول عن الشيك، وأنني ظهرت في المصرف في الصباح الذي قدَّم فيه مكُّلوش الشيك لمنع الصراف من إمداد بالمال في حال لم يلاحظ أن الشيك مزور، وأن توقيع الدكتور سميث غير صحيح. وقد اعتقلت بنفسي الرجل الذي قدَّم الشيك لنبدأ تنفيذ خطتي. هذا هو ما يهم المحكمة.

هنا أود أن أقول إن أغلب من في القاعة قد تعلقوا بشهادتي أنني قد أمرت بتزوير الشيك وأمرت واحدًا من رجالي أن يقدمه للمصرف، وأنني لا بُدَّ واقع في المشاكل بسبب هذه الشهادة، لكن كل شيء قد تغيَّر بعدما أدليت بتفسيري أن النية هي ما تُحدد وقوع الجريمة من عدمه.

طُلِب مني منذ اعتقالي مَكُّلوش، وصراعي معه، لماذا طلبت منه، بل وتركته يصرعني والشرطي ويترطنا في حال يرثى لها، مما أجبرني على التعايش بإصابة في عيني

وجانب وجهي لأيام. أجبت سؤالهم المتعاطف بأنني قررت أن أنفذ كل ما هو ضروري للحصول على المعلومات التي نريدها لأجل محاكمة مرتكب هذه القضية الرهيبة محاكمة عادلة، كون المتهم هو الوحيد على وجه الأرض الذي يعرف ماذا حدث بدقة.

عرفت أن مكسويل يستمتع بالشهرة التي تمنحها له الصحف، وعرفت أيضًا أن الناس قد ملَّت من القراءة عن أخباره، وفكرت حينها أنني لو جعلت أحد موظفيّ يتنكر في هيئة مجرم خطر، يسحب انتباه الصحف نحوه، فسيجذب هذا نظر مكسويل، ويرغب في الاستمتاع ببعض الضوء المُسلَّط على مكُّلوش، وقد تأكد شكي هذا بنجاح الخطة. رأيت أنه من الضروري أن يلكمني مكُّلوش ويجعل العراك بيننا حقيقيًّا تمامًا كي ندفع أي شك قد يظهر في نفس رئيس الشرطة أو أحد من رجاله؛ لو شكوا أن مكُّلوش ليس كما يدعي، أو أن له صلة بي، فسيكشف هذا خطتي ويدمر فرصتنا الوحيدة في نيل شرف خدمة العدالة.

أنا و مكُّلوش لعبنا دورين تمثيليين، ويبدو أننا قد برعنا فيهما.

كان يمكنني الحصول على الشيكات مباشرة من دكتور سميث، لكني كنت سأضطر لشرح سبب احتياجي لها، مما سيجبره على إفشاء السر تحت القَسَم، حين يُطلب للشهادة في جلسة الاستماع الأولى لقضية مكُّلوش، مما سيفسد

خطتي تمامًا.

طلبت كذلك من مُوظفي فيليبس، كتابة الشكوى الأولى ضد مكُّلوش، أو دينجفلتر كما ادعينا، ولم أخبره بالحقيقة لنفس السبب؛ كي لا يقول ما حدث تحت القسم.

إبقائي كل التفاصيل سرية أعفت الجميع من الكذب تحت القسم، أو الاضطرار لقول الحقيقة ومن ثم إفساد المخطط. أنا شخصيًّا لم أظهر في مخفر الشرطة أو في جلسة الاستماع الأولى، أو في أي مكان قبل المحاكمة كي لا أضطر للشهادة في قضية مكُّلوش قبل البدء في المحاكمة مكسويل.

المارشال ف. مَكدونالد كان يجلس في مكتبه وحيدًا في يوم - بعد إيداع دينجفلتر السجن، وتحقيقه تقدمًا ملحوظًا في أمر القضية- حين دخل عليه وليليام ماريون ريدي، أو المعروف اختصارًا ببيلي ريدي، وهو – في هذا الوقت- صحافي شهير في جريدة جلوب ديموكريت. كان يعرف كل شيء يجري في مجمع الحاكم الأربع، ويعرف كل شخص يستحق المعرفة في سانت لويس. هو صديق مقرب لمَكدونالد، ومعجب بأدائه الوظيفي.

قال عند دخوله المكتب:

- ماك، لماذا لا تختار شخصًا مناسبًا، وتسجنه مع مكسويل؛ ربما ينجح في استخلاص حقيقة ما حدث في

جريمة قتل بريلر منه.

اضطرب مَكدونالد لدى سماع هذا الاقتراح من السيد ريدي، لكنه -كونه رجلًا ذا أعصاب قوية - نجح في إخفاء دهشته، وقال لريدي أنه لا يظن أن شيئًا يمكن استخلاصه من مكسويل بسجن رجل من طرف الشرطة معه، وأضاف:

- هناك أكثر من أربعمائة سجين في الحبس، ويمكن للمرء أن يمكث هناك شهورًا قبل أن يصل إلى مكسويل، وعلى الأرجح قد نصحه محاموه أن يلزم الصمت ولا يتحدث مع أحد عن القضية.

قال ريدي:

- خطر لي أن هذه خطة قد تفلح، لذا اقترحتها عليك لقيمتها، لكن إن كنت تظنها غير ذات فائدة، فانسَ كل شيء عنها.

غادر المكتب، فقام مَكدونالد يعتمر قبعته ويرتدي معطفه ويهرع إليَّ دون أن يراه أحد، ورأيت أنه متحمس ويشعر أن شيئًا جيدًا سيحدث. حييته وطلبت منه الجلس، ثم قلت له:

- ماك، ما حدث؟

فرد يده اليمنى وأجاب:

- كل شيء قد حدث!

سألته:

- ماذا تعني؟

- جاء بيلي ريدي إلى مكتبي منذ قليل واقترح عليَّ انتقاء رجل منا لدسِّه في السجن، ليتجسس على مكسويل ويعرف منه تفاصيل الجريمة.

سألته:

- هل هذا هو كل ما قال ريدي؟

انبرى يحكي بالتفصيل كل ما قال ريدي، فسألته عن رده عن هذا الاقتراح وقلت:

- هل تظن ريدي قد لاحظ اضطرابك لدى سماعك اقتراحه؟

أجاب:

- أنا لم أضطرب. أنا لا أضطرب أبدًا.

قلت له:

- بل بدوت مضطربًا متحمسًا حين دخلت عليَّ، ولو أن بيلي ريدي قد لاحظ هذا، فربما سيفكر في تفسير لما رأى. وبما أنك لم تقبل اقتراحه، فربما سيقدم ذات الاقتراح للرئيس هارينجتون.

قال:

- أوه، كلا. لن يقدم بيلي أي اقتراح للرئيس. هو صديقي،

وأقدِّر الشعور الذي دفعه لاقتراح أمر كهذا، لكني كنت أتمنى ألا يخطر له ببال.

قلت له:

- أعرف أن بيلي ريدي رجل نابِه، وصحافي ممتاز، وصديق وفي لك. أؤمن أنه لن يقول شيئًا آخر عن هذا الموضوع، وأظن أن خير ما نفعله هو أن ننتظر المستجدات.

اتبع نصيحتي، وأعتقد أن ويليام ماريون ريدي – الذي هو الآن مالك ريئس تحرير جريدة سانت ليس ميرور- لم يعرف كم أقلَقَ اقتراحه صديقه المارشل ف. مَكدونالد.

حكيت كيف مكثَ مكُّلوش في السجن، واستخرج المعلومات من مكسويل، ولم يُفسد اقتراح السيد ريدي خطتنا؛ هو لم يقترحه على أحد آخر.

شهاداتنا في المحاكمة ضد مكسويل أفحمته، وسرعان ما حُكم عليه أنه مذنب بجريمة قتل من الدرجة الأولى، وحمل هيو م. بروكس –المعرف بمكسويل- لقب صاحب جريمة الدم البارد.

أقام قسم شرطة عرضًا في المبنى التعليمي خلال فعاليات معرض لويزيانا في سانت لويس، عرضت خلاله صورًا، وتقارير الشرطة عن المجرمين والقتلة والنصابين، والأدوات التي استخدموها في جرائمهم. وعُرض في المعرض حبل

المشنقة التي شُنِق عليه مسكويل، وصورًا له وللضابطين اللذين ألقيا القبض عليه في أوكلاند، نيوزيلاندا. حضر المعرض آلاف الزوار، وطالبت أن تُخبر الشرطة الجمهور أن لا علاقة لها بجلب الأدلة التي أدانت مكسويل، ولا بالقبض عليه سوى أنهم أرسلوا فقط أوصافه. الحقيقة أن ليس؛ رئيس شرطة سان فرانسيسكو، هو صاحب الفضل في اعتقال مكسويل، أما الحُكم عليه فالفضل فيه يعود إلى جهودي وتعاون مكُّلوش، والسيدين كلوفر ومَكدونالد. دفع السيد كلوفر تكاليف تنفيذ خطتي من جيبه الخاص، وقد استحق السيد مَكدونالد أكثر مما نال من تقدير، بسبب براعته في إدارة العملية والمحاكمة. لكن أي من تلك الأسماء لم يُذكر في المعرض.

دفع السيد دلوفر من ماله الخاص ستمائة دولار، وعانيت أنا تورم وجهي وعيني.

أثناء أقامة جينجفلتر فى السجن، تعرف على الأخوين جونستن، الذين ألقي القبض عليهما في نيو أورلينز ونُقِلا إلى سانت لويس لتتحفظ عليهما السُّلطات الأمريكية، بتهمة حيازة عدد كبير من السندات البرازيلية المزيفة التي لا قيمة لها بالنسبة لمن سيشتريها. اعتقلت الشرطة عددًا من المجرمين الذي يتداولون هذه السندات المزيفة، وأرسلتهم إلى سانت لويس للعرض أمام المحكمة الفيدرالية.

أُعجِب الأخوان جونستن لدينجفلتر، وحكوا له عن خططهما، ومن أين حصلا على هذه السندات، ومن طبعها لهما، وكل التفاصيل الأخرى الخاصة بجريمتهما. بالطبع كانا يُظنان دينجفلتر مجرمًا نصابًا فائتمنوه على أسرارهما، حتى ظهر دينجفلتر في محاكمة مكسويل وشهد شهادته وأدلى باسمه الحقيقي أمام القاضي، وكذا وظيفته.

بمجرد أن عرف الأخان جونستن بحقيقة دينجفلتر، أرسلا إلى سلطات الولايات المتحدة بأنهما قد اعترفا بكل تفاصيل جرائمهما للمحقق دينجفلتر، وأنهما يرديان الاعتراف بجريمتهما أمام القضاء فيُخفف عنهما الحُكم، وهذا بالفعل ما حدث.

احتيال القطن العظيم

نهاية مأسوية لقضية كبرى، بُذل فيها مجهود كبير في التحقيق.

جريمة احتيال القطن وقعت في شيرمان، ولاية تكساس، قرب خريف عام 1883. كان هذا في وقت نقل وشحن القطن، وكانت مدينة شيرمان هي النقطة التي يُجمع فيها محصول القطن سنويًّا، وهي من أكبر مدن المنطقة في زراعة هذا النبات، ولهذا السبب، يرسل تجار القطن وأصحاب مصانع الغزل ممثلين عنهم في نقاط الشحن المذكورة. الممثلون هم في الواقع سماسرة، وبمجرد أن يشتروا الكمية التي يرغبون فيها، يرسلونها إلى شركات السكك الحديد لشحنها، وتلقِّي فواتير الشحن التي توثق وزن كل شحنة. يوقع على تلك الفواتير ممثل السكك الحديد، ويمكن التعامل بتلك الفاتورة مع أيٍّ من بنوك المنطقة.

يأخذ المصرف فاتورة الشحن هذه، ويعطي بائع القطن تسعين بالمائة من قيمة الفاتورة، ويحتفظ لنفسه بعشرة في المائة مؤقتًا حتى الإعلان عن سعر بيع القطن النهائي.

طريقة البيع هذه كانت شائعة في الولايات التي تشتهر بزراعة القطن، وأعتقد أنها لا زالت سارية حتى وقتنا الحالي.

في بداية يناير عام 1884، استدعيت إلى مكتب مدقق الحسابات لدى شركة جولد للسكك الحديد، النقيب س. ج. وارنر. كانت شركة تكساس وباسيفيك واحدة من خطوط شركة جولد، وكنت أشغل منصب رئيس المحققين في هذه الشركة.

عند وصولي مكتب النقيب وارنر، أخبرني أنه قد تلقى برقية طويلة من شيرمان تيكساس، أرسلها لها واحدٌ من محاسبيه، يخبره فيها أن شحنة قطن كبيرة قد خرجت من محطة الشحن، ولم تصل إلى وجهتها. طلب مني النقيب وارنر أن أذهب إلى شيرمان فورًا، حيث سأقابل المحاسب السيد فينبي، وأبدأ التحقيق حول الواقعة.

غادرت سانت لويس على متن أول قطار، وصلت شيرمان في الوقت المحدد، وقابلت السيد فينبي، الذي أكَّد لي أن عميل الشركة المسؤول في شيرمان (سأسميه العميل رقم 4)، قد غادر ليلة السبت الماضي، ولم يسمع عنه أحد شيئًا من وقتها. أخبرني كذلك أن العميل رقم 4 أخبر مساعده في مساء السبت أنه سيعرج على جالفستون في مهمة شخصية، ومتوقع أن يعود يوم الاثنين. ثم جاء يوم الأربعاء ولم يعد العميل رقم 4، مما تسبب في قلق السيد فينبي ومن ثم أبلغ الإدارة في سانت لويس، التي طلبت مني بدورها الذهاب إلى شيرمان.

بدأت على الفور التحريات لمعرفة مكان العميل رقم 4 المفقود، وظللت في شيرمان مدة ثلاثة أو أربعة أيام، وشاركني المحاسب وبعض مساعديه في تحقيقي، ومحاولة إصلاح الخلل المحاسبي الذي تسبب فيه اختفاء العميل رقم 4.

في نفس الوقت، انهال سيلٌ من البرقيات على شيرمان، أرسلها من اشترى كميات مهولة من القطن من نيورورك وفولريفر، وماساشوستس ورود آيلاند. الشحنة المفقودة تُقدَّر بمبلغ مائة وواحد وعشرين ألفًا من الدولارات، وكانوا يستاءلون لماذا لم يستلموا مستحقاتهم.

ظلت البرقيات تصل شيرمان لمدة شهر أو شهر ونصف، قبل أن يرسلوا طلبًا لحضور السيد فينبي.

تزايد قلق العاملين في شركة السكة الحديد، وقد استنتجوا مما يحدث أن القطن الذي اشتراه الناس من الشرق ويطالبون به، قد شُحِن لكنه سُرق في الطريق. لو أن هذا ما حدث، ستكون شركة السكة الحديد مسؤولة عن عن تعويض المشترين ودفع المال المطلوب بالإضافة إلى تعويض الضرر الحاصل لهم.

هذا، ويمثل فقدان شحنة القطن مشكلة كبيرة للشركة وسمعتها.

بعدما عملت في شيرمان عدة أيام، وبذلت ما لم أبذل من

جهد من قبل في حياتي العملية، توصلت إلى معلومات تُفيد بصلة ثلاثة رجال آخرين بالعميل رقم 4 المفقود، وبعملية الاحتيال هذه. كذلك استطعت تحديد مكان عائلة وأصدقاء العميل رقم 4، والمشتبه بهم الثلاث الآخرين، ولن أذكر هنا أسماءهم لصلتهم بعائلات محترمة لا زالت عيش بيننا حتى الآن، وهي عائلات غير مسؤولة بأي شكل من الأشكال عن جرائم ذويهم الثلاث.

خلال تحرياتي، عرفت أن أحد الثلاثة، وسأدعوه رقم 1، لديه أخ في نيوأورلينز. (سأدعو الرجلين الآخرين رقمي اثنان وثلاثة للأسباب التي أوضحتها من قبل) قررت السفر من شيرمان مباشرة إلى نيو أورلينز لتحري أمر شقيق رقم 1، وأرسلت في طلب مساعدي جورج و. هيربيرت ليقابلني في في نيو أورلينز، وقد فعل.

وجدنا شقيق رقم 1 بسهولة فائقة، وعرفت أن زوجته ستتوقف قليلاً مع اخي زوجها في مزرعة العائلة بالمدينة، فراقبت المزرعة للتأكد إن كانت زوجة رقم 1 تقيم هناك. لدي صورة له ولزوجته الجميلة، التي ولدت وعاشت في ولاية تينيسي، حيث تقيم عائلتها وأشقاؤها.

عرفت كذلك أن هناك رجلًا يطابق وصف رقم 1، يقيم في فندق في شيرمن تحت اسم مستعار؛ ج. د. ديلارد، وقد وصل الفندق في ساعة متأخرة من الليل، وظلَّ في حجرته

حتى اليوم التالي، لا يغادرها، ويطلب وجباته فيها حتى ظن العاملون في الفندق أنه مُعتَل.

خلال هذا اليوم، اتصل العميل رقم 4 بالفندق، وزار غرفة ديلارد، ومكث فيها نحو ساعة أو أكثر. المريب أنه ذهب إلى الحجرة دون أن يمر على مكتب الشحن.

رقم 1؛ ديلارد، غادر غرفته عند منتصف الليلة التالية، وركب قطار الشمال إلى شيرمان، ولم يره أحد أثناء إقامته في شيرمان إلا موظف الليل في الفندق، الذي جهز له أوراق الإقامة في حجرته، وخادمة الغرف التي تذكر ملامحه جيدًا، أخبرتني أنها ستتعرف عليه لو رأته في أي مكان. وصفته بدقة قبل أن أريها صورته، وبعدما رأتها وسط صور أخرى، عرفته على الفور. كان هذا ما دفعني لوضع منزل شريق رقم 1 في نيو أرلينز تحت المراقبة.

تتبعت ديلارد أيضًا من شيرمان في تيكساس، إلى إمبوريا في كانساس، حيث تعرف على صورته وزوجته مالك الفندق وموظفيه، وهو ذاك الفندق الذي نزل فيه ديلارد قبل شهر من زيارته لشيرمان. بقيت السيدة ديلارد –زوجته- في إمبوريا خلال فترة غياب زوجها، حتى عاد إليها، ثم تفرَّقا على الفور مرة أخرى إلى وجهتين غير معلومتين. تتبعتهما إلى توبيكا في كانساس حتى فقدت أثرهما.

أبقيت أنا ومساعدي على مراقبة مزرعة شقيق رقم 1 في

نيو أورلينز، لمدة ثلاثة أسابيع، وتبادلنا نوبات الحراسة والنوم طيلة هذه الأيام، وكانت هذه واحدة من أصعب المهم التي أوكِلت إليَّ، بسبب أن رئيس شرطة نيو أورلينز صديقي، ووجهى مألوف لعدد من مفتشي المدينة، ففعلت ما في وسعي كي لا يراني أحد فأضطر إلى شرح سبب ما أفعل وسبب تواجدي في المدينة، مما قد يتسبب في الإساءة لسمعة العائلة التي أراقب مزرعتها.

خلال فترات اليقظة الطويلة، وقت الكثير من المواقف الطريفة. في صباح يوم، بعدما قضينا أيام متواصلة من المراقبة، فكرت في خطة لمعرفة إن كان في البيت أي نساء؛ لم نلمح أيهن منذ جئنا، وكنت آمل أن أجد زوجة رقم 1.

رأيت فتاتين إيطاليتين تعزفان على آلة أرجن صغيرة صغيرة ذات عجلات، لها صوت عالٍ صدَّاح. بهدوء طلبت منهما أن يعزفا أمام المنزل الذي أراقبه، مُبررًا طلبي بأن المكان الذي تقفان فيه قد يجذب إليهما نظر الشرطة، فتمنعهما.

موسيقاهما وأداؤهما الخلاب لفتا أسماع نساء البيت، فخرجن إلى الشرفة، لكن للأسف لم تكن المرأة المنشودة بينهن.

تكرر العرض الموسيقي عدة أيام تالية، بنفس النتيجة

المخيبة لآمالي. وقد تأكدت بعدها أن السيدة ديلارد ليست هناك من الأساس.

في نفس الوقت، لاحظت أن شقيق ديلارد رجل لطيف، يحب التمشية بين هذا المنزل ومكتب البريد كل صباح، حيث يضع بضع خطابات في صندوق البريد العام في ممر المكتب، فتحة الصندوق ارتفاعها قدم، وعرضها ثلاث بوصات، تُفضي إلى مخزن للرسائل في القبو تحت الطابق العلوي.

يتسع المخزن إلى حمولة سيارة من الخطابات والطرود، ومن المستحيل أن تجد خطابًا وسط الأكوام بالأسفل.

شقيق رقم 1 رجل في منتصف العمر، بطيء الحركة، يكرر أفعاله يوميًّا كأنه يتعمد هذا؛ يحمل هذه الخطابات في جيب معطفه الداخلي، ويسير معتمدًا على عصا، ثم يدس العصا تحت إبطه، ويخلع قفازه عن يمناه، يخرج الخطابات، ثم يدسهما في فتحة الصندوق ببطء، واحدًا تلو الآخر. يظل واقفًا حتى يختفوا عن عينيه ويسمع أصواتها إذ تصل إلى مُستقرها.

يكرر هذه العملية كل يوم ما عدا أيام الأحد. راقبناه أنا وهربرت لمدة ثلاثة أسابيع حتى مللنا. أخيرًا اقترحت أن أكتب وهربرت خطابين ونكتب عليهما عنواننا، ونلصق عليهما طابع البريد، ثم نغطي ظهر كل مظروف منهما

بطبقة صمغ.

وقف هربرت ومعه خطابه على جهة من جهتيّ صندوق البريد، ووقفت أنا ومعي خطابي عند الجهة المقابلة، وحافظنا على مسافة مناسبة بيننا وبين الصندوق.

الممر الرئيسي لمكتب البريد مزدحم بالمارة والرائحين والغادين، لذا لم يلفت وجودنا نظر أحد. لم ننتظر كثيرًا لعلمنا بموعد ظهور شقيق رقم 1. تقدَّم من صندوق البريد كعادته، ومارس طقوسه البطيئة المعتادة، لكن قبل أن تنزلق خطاباته في الفتحة، هرعت أنا وهربرت نمد يدينا بخطابينا المدهونين بالصمغ في نفس الوقت، بحيث يلتصقان بخطابات الرجل قبل أن تهوى إلى المخزن.

انزعج شقيق رقم 1، وغمغم شيئًا عن الوقاحة والغرابة، فاعتذرت وابتعدت فورًا نحو مكتب مساعد المدير، وأخبرته أنني وضعت خطابين في الصندوق، لكنني أخطأت في وضع كل خطاب دخال المظروف الذي يحمل عنوان المرسل إليه الصحيح، وأنني أتمنى لو يساعدني في استعادتهما لأصحح خطئي.

اصطحبني إلى المخزن الذي كان مليئًا بنحو نصف حمولة سيارة من الخطابات والطرود، ووجدت على الفور مجموعة الخطابات الملتصقة إلى بعضها، ففصلتها وأنا أحفظ العناوين المكتبة على خطابات شقيق رقم 1. واحد منها

خطاب إلى أحد أقارب السيدة ديلارد، وواحد إلى شقيق آخر لرقم 1 يعيش في أتلانتا بولاية جورجيا، والأخير مُرسل إلى ج. د. ديلارد، يعيش في أوشن سبرينجز بولاية ميسيسبي. كنت أعرف عن الأقارب في تينيسي والأخ في أتلانتا، وأعرف أن ج. د. ديلارد هو الرجل الذي أبحث عنه، لكنني لأول مرة أعرف عنوانه.

أوشن سبرينجز كانت وقتها منتجعًا شتويًّا تقع بين خطي سكك حديد لويسفيل وناشفيل، اللذين يربطان بين مونتجومري ونيو أرلينز. تعتبر أوشن سبرينجز كذلك ميناءً يطل على خليج موبيل.

انطلقت إلى أوشن سبرينجز، فوصلت عند منتصف الليل، وعرفت أن مكتب البريد هناك يقع داخل متجر بقالة، الذي هو بدوره جزء من الفندق الكبير في البلدة. صاحب الفندق هو مدير المتجر. رجل حاذق، ماهر. أريته صورة رقم 1 وزوجته، فتعرفهما على الفور وقال إنهما السيد والسيدة ديلارد، وإن الأول – كما قدَّم نفسه إليه- صاحب مصنع صلب، ثري، من كاتانوجا بولاية تينيسي. زعم كذلك أن زوجته مريضة، وأنها في حاجة للاستجمام، فأجر كوخًا جميلًا يُعرف بكوخ مونتجمري، يقع على لسان ممتد من الشاطئ إلى الماء، على بُعد ميلين من مكتب بريد البلدة، وعاشا هناك مدة شهر.

الطريقة التي وصف بها صاحب الفندق الرجل وزوجته

أكدت لي أنهما من أبحث عنهما. قلت له السيد ديلارد قد ورث مبلغًا محترمًا وبعض الأملاك، وهو لا يعرف بهذا بعد، وأنا أريد أن أقدّم له هذه المفاجأة بنفسي، لكن قبل هذا، أريد أن أجهز كل الأوراق اللازمة، وأحتاج لإتمامها أسبوعًا أو عشرة أيام، ولا بُدَّ أن يظل الأمر طي الكتمان حتى أستعد. وعدني الرجل ألا يخر أحد بشيء قبل أن آذن له. هكذا اطمأننت إلى أنني لن أضطر إلى إفشاء مخططي قبل أن أكمل أوراقي التي تُمكنني من إلقاء القبض على رقم 1.

ضروري الحصول على أوراق الاستيلاء من حاكمي مسيسبي وتكساس، مما يستلزم أن أنتظر نحو أسبوع أو أكثر حتى تُرسل الأوراق المطلوبة من ولاية إلى أخرى.

بعد اتفاقي مع مالك الفندق، ركبت قطار الليل إلى نيو أورلينز حث التقيت جورج هربرت، وطلبت منه السفر على متن أول قطر إلى أوشن سبرينجز، ويقدم نفسه إلى مالك الفندق باعتباره مريض يحتاج منتج يرتاح فيه، وكان هربرت رجل نحيل ذا بشرة شاحبة بطبيعته.

زعم هناك أنه قد مرَّ بأزمة روماتزمية، ونصحة الأطباء بالإقامة في مكان دافئ مثل أوشن سبرينجز شهرًا أو اثنين. اشترى عكازين يتكئ عليهما طيلة إقامته هناك، وراح يدعي المرض، ويدعي أن يتماثل للشفاء بفضل الجو الدافئ، والسير تحت الشمس فترات طويلة.

كانت خطتي أن تمتد به تمشياته إلى كوخ مونتجمري، وشكواه الصحية لن تثير الشكوك حول جولاته، وقد في هذا.

التقى برقم 1 في مكتب البريد، في ثاني أيام إقامته، وكذا في اليوم التالي. تعرفا إلى بعضيهما، ودعاه رقم 1 إلى زيارة الكوخ. قبل هربرت الدعوة في اليوم التالي، وقدَّمه رقم 1 إلى زوجته، وحماته، وشقيق زوجته الذين كانوا موجودين لزيارتهم في هذا اليوم.

تعرف هربرت أيضًا على سيدة جميلة داكنة الشعر ضيئلة الجسد، قدموها له ولم يخبروه بصِلَتها بهم، لكنه عرف بعد أيام أنها زوجة العميل رقم 4 المفقود.

تناول هربرت الغداء معهم في الكوخ، وفي اليوم التالي خرج في رحلة بحرية مع رقم 1 وزوجته والمرأة داكنة الشعر التي ذكرتها من قبل. ركبوا يختًا شراعيًّا حمولة عشرون طنًا، يقوده رجل ماهر في عمر الخامسة والثلاثين، أصلع تقريبًا، وطولة حوالي خمس أقدام وست بوصات، ووزنة مائة وثلاثين رطلًا. بشرته داكنة، نحيل، كأنه مصاب بالسل.

لم يعرفه مضيف هربرت بالرجل، فظنَّ الأخير أنه مجرد بحَّار وموظف لدى رقم 1.

تحقق هربرت جيدًا من مواصفات الكوخ وما بداخله، وعرف مخارجه ومداخله والمباني المرفقة به بعدما واظب على زيارة الكوخ يوميًّا، ورحب به المقيمون وأحبوا رفقته. كان هربرت قد استأجر حصانًا صغيرًا وعربة تسهل انتقاله مِن وإلى الكوخ.

أرسل لي هربرت تقاريره عن الأحداث ومخطط المكان خلال غيابي عن أوشن سبرينجز، وانشغالي في جمع الأوراق التي ستمكنني من إلقاء القبض على رقم 1 والعميل رقم 4 في نفس الوقت، بعدما عرفت من وصف هربرت للبحار أنه لم يكن سوى العميل رقم 4 نفسه.

في الوقت المناسب قدمت الأوراق إلى مدينة كانتون، التابع له أوشن سبرينج، وتعرفت إلى الشريف كلارك شيف تلك المقاطعة. أمدني الشريف بكل ما أريد، كوني عميل ولاية تكساس التي قدمت شكوى الاحتيال.

الشريف كلارك رجل لطيف نبيل، خدم في الحرب الأهلية، ثم انتخبوه شريفًا لمقاطعته عند نهاية الحرب. طلبت منه مرافقتي بنفسه.

غادرنا كانتون التي تبعد عشرين ميلًا شمال أوشن سبرينجز، في العاشرة مساءً، ووصلنا المحطة شمال أوشن برينجز بعد ساعة، حيث أخبرني هربرت أن شقيق رقم 1 يزور محطة قطار أوشن سبرينجز كل ليلة لمراقبة القادمين

إلى البلدة.

لم أذكر حتى الآن أن رقم واحد العميل رقم 4 ماهرين في إرسال البرقيات، ولاحظ هربرت أثناء مراقبته أن هناك سلكين نحاسيين دقيقين يتصلان بالكوخ، وراقب بدايتهما فعرف أنهما يتصلان بشركة برقيات ويسترن يونيون، التي تصل نيو أزرلينز بالشمال، وعرف كذلك أن لديهم مكتب برقيات في واحدة من حجرات الكوخ.

اللسان نفسه الذي يقع عليه الكوخ مغطى جيدًا بأشجار الصنوبر والأرز، ولا يمكن كشف الأسلاك إلا لمن يبحث ويتحقق مثلما يفعل هربرت. هكذا يتمكن الرجلان من التجسس على البرقيات الصادرة والواردة.

بعدما غادرت القطار أنا والشريف والشرطي المرافق، مشينا بمحاذاة القضبان ميلًا نحو أوشن سبرينجز، ثم دُرنا حول المحطة حتى وصلنا اللسان جنوب أوشن سبرينجز حيث سنقابل هربرت.

كانت ليلة مطيرة، وكنا في منتصف فبراير والهواء بارد والليل حالك.

حين وصلنا اللسان، احتميا من المطر تحت الأشجار، ثم اقتربنا من الكوخ حتى ما عاد يفصل بيننا وبينه إلا نحو ألف قدم، هنا قررت أن نبيت مكاننا حتى تشرق الشمس. استطعلت أنا وهربت الكوخ وما حوله، وعرفنا أن الكل

نائم، فعندما أبلغنا الشريف والشرطي.

حاصرنا المكان، وغطى الشرطي وهربرت مؤخرة الكوخ، وذهبت أنا والشريف فطرقنا الباب دون مجيب، لكننا سمعنا الخصاص يُفتح ويطل منه مَن بالداخل ليكتشفوا أن المكان مُحاصر ومراقب من الجهتين.

قال الشريف بصوت جهوري أن على مَن بالداخل فتح الباب أو أننا سنضطر لاقتحامه. بعد تردد، انفتحت طاقة واحدة من الباب الأمامي المزدوج، وبرز منه شقيق زوجة رقم واحد، يحمل بندقية، وقبل أن يرفعها، أشهرت والشريف سلاحينا في وجهه. أمره الشريف بإلقاء سلاحه على الأرض، فامتثل فورًا. دخلت أنا إلى الصالة العريضة التي تغطي طول الكوخ، فباغتني رقم 1 يحمل بندقيته، فتعرَّفته على الفور واعتقلته.

سألته:

- أين العميل رقم 4؟

أجاب:

- في الحجرة عبر الرواق.

ذهبت إلى الحجرة المُشار إليها، ودققت الباب فلم يستجب أحد، اقترحمت المكان لأرى رقم 4 واقف في منتصف الحجرة، وكان يشرع في ارتداء ملابسه.

بعد صعوبة في إلقاء القبض على رقم 4 وزوجته، نقلنا الجميع إلى أوشن سبرينجز، ووصلنا هناك في وقت الإفطار، وكان المطر قد توقف عن الهطول.

بعدها، ذهبنا إلى الفندق لنتناول شيئًا، وعرف صاحب الفندق على الفور طبيعة المفاجئة التي كنت أعدِّها لرقم 1.

رافقت وهربرت سجينين من المجموعة على متن القطار المتجه إلى نيو أورلينز، وكنت قد أرسلت برقية قبلها طلبت فيها تحضير سيارة تنقلنا من المحطة في نيو أورلينز إلى المعدية حيث عبرنا النهر إلى ألجيريز، وكان سبب كل هذا العناء في التنقُّل هو محالة تفادي الصحافة التي كانت بالمرصاد لنا في محطة قطار نيو أورلينز الرئيسية.

من ألجيريز، ركبنا القطار إلى هوستون، تسكاس، ومنها ركبنا قطار آخر إلى دالاس.

أودعنا السجناء الحبس قبل أن تذكر الصحف شيئًا عن إلقاء القبض عليهم، وكان هدفي ألا يأخذ الرجلين الآخران الحُران حذرهما، وهما المحتالان رقمي 2، و3 المقيمان في دالاس ولا يعرف أحد أن لهما صلة بالجريمة.

في الصباح التالي، ألقينا القبض – أنا ورئيس الشرطة جيم أرنولد- على المجرمين الآخرين. الاثنان يهوديان، واحدٌ منهما تاجر قطن معروف، والآخر محامٍ لم يمارس المحاماة، قد تورَّط من قبل في صفقات مشبوهة ولم يثبت

عليه شيئًا أمام القضاء وقتها.

قد يتذكر القارئ أن رقم 1 عميل سكة حديد سابق، وعامل برقيات، وقد عُين في هاتين الوظيفتين قبل عام ونصف من جريمة الاحتيال هذه، وقد صار خلال هذه الفترة عالمًا بباطن نقل وتجارة القطن.

رقم 2 والقاطن في دالاس، كان يعمل أيضًا في مجال نقل وتجارة القطن، واستلام الأموال من البنوك لسداد قيم الفواتير والشحن.

رقم 3 تاجر قطن حسن السمعة، وسمسار، وكان هذا بالطبع قبل تورطه في هذا الاحتيال.

أضاف اعتقال المُجرمَين في دالاس الكثير من الإثارة لاعتقال رقمي 4 و1 في الليلة السابقة.

مثل المجرمين الأربع أما القضاء في جلسة ابتدائية، وأرسلوا إلى السجن في انتظار دفع الكفالة حتى موعد المحاكمة النهائية، والتي حُدِّد وقتها بعد شهر أو ستة أسابيع.

ثلاثة منهم استطاعوا دفع الكفالة المُقدَّرة بعشرة آلاف دولار. رقم 3 مرض فور اعتقاله، وظلت حالته تتدهور باطراد حتى توفى بعد شهرين من اعتقاله.

بعد خروج رقمي 1، و2 بكفالة، هربا من البلاد، أولهما

قصد المكسيك، والآخر مدينة لندن (1) القريبة من أونتاريو، كندا.

حين جاء وقت المحاكمة، لم يظهر المذكوران، وصُودِرَت كفالتهما، أما رقم 3 فقد توفي، ولم تُصادر كفالته.

رقم 4 لم يحاول دفع الكفالة، أو لم ينجح في جمع المال لدفعها، فظل في السجن. في هذه الأثناء كنت أعمل على تسديد مال بائعي القطن الذين تسببت تلك الجريمة في خسائرهم، وقد طُفت عدة مُدن لأداء هذه المهمة الصعبة، حتى حصلت على نسخ من العقود والفواتير التي أرسلتها للقاضي كأدلة يستخدمها في القضية.

وصلت دالاس وقت المحاكم، وعلمت بغياب المتهمين، وتأجيل محاكمة رقم 4 كونه الوحيد الموجود، أرسلت لموظفي شركة السكة الحديد في سانت لويس أوامر الشرطة بضبط وإحضار الهاربين وإرسالهم إلى دالاس تسليمهم للسُلطات، ومن ثَم مثولهم للمحاكمة العادلة.

بعدها طلبت من اثنين من موظفي؛ هربرت وبيلي، أن يعثرا على رقم 1 ويعتقلاه، وقد نجحا في ذلك بعد جهدٍ، وأعاداه إلى السجن. ثم بدأت أنا في البحث عن رقم 2، ووجدته في كندا، حيث رأيته ولم يرانِ، وإلا لتعرفني على الفور. وجدته قد أحاط نفسه بأصدقائه المتعاطفين معه، وأغلبهم من الهاربين من العدالة في قضايا مختلفة في

الولايات المتحدة. وسطهم، وجد لنفسه الأمان والمال.

معاهدة تسليم المجرمين بين بريطانيا والولايات المتحدة تسمى معاهدة آشبورتون وويبستر، وهي تنص على تسليم المجرمين الذين ارتكبوا واحدة من سبع جرائم؛ القتل، الاعتداء بدافع القتل، الحريق المتعمد، الاغتصاب، التزوير، شهادة الزور.

بعدما وجدت رقم 2، أرسلت أخبر السيد جون س. براون، مدير عام سكك حديد جولد في سانت لويس، فطلب مني أن القي القبض على رقم 2 وأرافقه إلى متشيجن أو نيويورك، وسلّمه للسطات في أيٍّ من الولايتين حتى إنهاء أوراق معاهد تسليم المجرمين وتسلمها من حاكم تكساس.

من خلال التعليمات التي تلقيتها من السيد بران، عرفت أنه يجهل حالة كندا فيما يخص بأوراق التسليم؛ لو أنني حاولت نقل المجرم عبر حدود كندا دون أوراق التسليم، فساكون وقتها متهمًا باختطافه، وسأرسل إلى السجن لفترة قد تصل إلى سبعة أعوام.

لذا، تواصلت مع محامٍ شاب من كندا، واسمه مَكبرايد، ورغم أنه مستجد في ممارسة المحاماة، رشحه لي الكثيرون بسبب نزاهته.

شرحت له أن بالتفصيل كيف أن فواتير الشحن المستخدمة في جريمة الاحتيال التي أعمل عليها، قد وقع عليها

عميل الشركة «على بياض»، وملأ العميل رقم 2 خاناتها بعدد شحنات القطن ووزنها كالمعتاد، ثم أرسلها إلى رقم 3 –تاجر القطن كما لا بُدَّ أن القارئ يتذكر- فسلَّمها إلى عدة بنوك في شيرمان، ودالاس، وعدد آخر من مدن تكساس، وسحب المال من تلك البنوك المذكورة حسب القيمة المبدئية الموضحة في الفواتير، أي بقيمة أقل عشرة بالمائة من القيمة المكتوبة. بعدما أوضحت كل هذا للسيد مَكبرايد، سالته عن توصيف الجرائم التي ارتكبها هؤلاء الرجال بحسب قوانين كندا، فأجاب فورًا أنهم مدانون بالتزوير والاحتيال وتداول أوراقًا مزيفة، ومعهم العميل الذي وقّع الفواتير «على بياض»، أي دون ملء خاناتها قبل التوقيع.

قل له:

- افترض أن هؤلاء المجرمين قد فروا من الولايات المتحدة إلى كندا، هل يمكن اعتقالهم وترحيلهم إلى الولايات للمحاكمة؟

أجاب:

- أجل. تحت مظلة معاهدة تسليم المجرمين(2) التي تنص على تسليم المتورطين في جرائم تزوير أو تداول أوراق رسمية مزيفة.

قلت له:

- لكن يا سيدي، عميل الشركة الرسمي هو من وقَّع فواتير الشحن.

- فهمت منك أن هذا العميل لم يتسلم شحنات القطن، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- إذًا فالعميل قد وقَّع هذه الفواتير بغرض النصب، وبهذا فتوقيعه لا يُلزم الشركة التي يعمل بها. القانون الكندي يرى أنه مزور نصَّاب، وهذه جريمة كُبرى.

لم أذكر لكم أنني بعدما حددت مكان رقم 2، أخبرني محامي شركة السكة الحديد أن القاضي الذي تولى تلك القضية في تكساس يقول إن الفواتير التي وصفناها بال» مزورة» لا تقع تحت تصنيف جريمة التزوير، لأن مَن، وقّعها هو عميل الشركة الرسمي. لهذا عرفت أنني لن أستطيع نقل العميل رقم 2 من كندا ما لم يكن معي ما يثبت عليه تهمة التزوير.

قال لي المحامي السيد مَكبرايد:

- القاضي في تكساس ليس له اختصاص قضائي في كندا، ورأيه في قوانينا لن يغير شيء من رؤية كندا لفِعلة المجرم. إن وجدت في كندا أي هارب له علاقة بجريمة الاحتيال التي تحقق فيها، وكل ما فعله يطابق وصف

الجريمة التي شرحت لي، فهو مجرم في نظر القانون الكندي. لذا أقترح عليك أن ترفع شكوى هنا ضد المجرم الذي تريد إلقاء القبض عليه، ثم ترسل في طلب شرطي يعتقله هنا لمدة لا تقل عن أسبوعين قبل أن يستطيع دفع كفالة للخروج، وفي خلال هذين الأسبوعين، يمكنك المطالبة بأسبوعين آخرين عن طريق إقناع القاضي أنك لم تجد بعد شاهدًا يؤكد هوية السجين وعلاقته بالاحتيال. يمنحك قانوننا هذه المزية. بعدما يخضع السجين لجلسة استماع ابتدائية، لن تقنع الشهادات الموجودة القاضي، فسيُعدِّل قيمة الكفالة إلى أربعة أضعاف قيمة المال الذي أخذه المحتالون، وفي هذه الحالة ستصل الكفالة إلى نصف مليون دولار.

بعدما انتهى السيد مَكبراید من نصيحته القيمة، شكرته ودفعت له أتعابه، وهي عشرة دولارات فقط، ثم توجهت إلى تشاتم، أونتاريو، وتبعُد عن لندن خمسين ميلًا، وتقع في منتصف المسافة بين لندن وديترويت في ولاية متشيجن الأمريكية.

قابلت مستشار الملكة في تشاتم، وشرحت له قضيتي، فأكد لي صحة النصيحة القانونية، وأصدر تصريحًا بالقبض على رقم 2، وأرسله إلى رئيس شرطة تشاتم، الذي اصطحبني إلى لندن حيث وجّهته إلى مكان المتهم، فاعتقله فورًا، وتقرر عقد جلسه استماع له بعد أسبوعين وفقًا

للقانون الكندي.

يتذكر القارئ أنني أخبرته بوجود رقم 2 وسط عددٍ من المجرمين الهاربين، ووجدت أنه من الحصافة ألا أعتقله بنفسي أو أظهر في الصورة كوني غريبًا مثله في هذه البلاد.

بعد اعتقال رقم 2، أرسلت إلى السيد براون في سانت لويس، وأخبرته بما حدثَ، وأنني سأمر بسانت لويس في طريق عودتي إلى تكساس وسأقابله. خلال ساعتين تلقيت برقية منه، ذات لهجة قاسية يقول فيها: «لماذا عصيت الأوامر التي تلقيتها مني؟ هكذا لن يمكن نقل الهارب من كندا إلى الولايات بموجب معاهدة تسليم المجرمين، ولا بقوانين الكونجرس. رجاء الرد. جون س. براون.»

أرسلت له التالي:

«الموقر السيد جون س. براون، كاتب العدل لدى شركة سكك حديد بميزوري باسيفيك: تجاهلت تعليماتك لأنني وجدتها خاطئة، وأنك لا تفهم القوانين المتعلقة بهذه القضية، وكذلك لمعرفتي بأن رأي القاضي في تكساس لا يُعتد به في كندا، فوجدت طريقة قانونية تمكنني من تسليم المجرم إلى السلطات الكندية. توقيع: توماس فُرلونج».

بعدما أرسلت البرقية، استعرت نسخة عن مراجعة القرار مستشار الملكة، والذي يُمثل منصب محامي الإدعاء في

الولايات المتحدة، وقد طلبت منه أن يضع علامة تحت كل قرار يدعم موقف القضية، ثم أخذت النسخة وانطلقت إلى سانت لويس، فوصلت في الصباح التالي.

ذهبت إلى مكتب نائب الرئيس السيد هوكسي، وبعد التحيات المعتادة قال لي:

- توم، عرض عليَّ السيد براون الرسالة التي أبرقتها له أمس، وقد بدا غاضبًا.

- أنا هنا لأوضح سبب قراراتي، وأتمنى لو تطلب من السيد براون الحضور إلى مكتبك والاستماع إلى هذا النقاش. وقتي محدود وعليَّ أن أذهب إلى تكساس للتواصل مع بعض الشهود، ثم أعود بهم إلى تشاتم، أونتاريو خلال أسبوعين؛ وقت الجلسة الابتدائية قد تحدد.

أرسل السيد هوكسي في طلب السيد براون، الذي جاء بعد لحظات، فأوضحت لهما بالتفصيل ما حدث وأبرزت لهما مراجعة قرار مستشار الملكة. بعدها قدمنا البرقيات التي تلقاها كلٌّ منا من الآخر إلى السيد هوكسي، الذي قرأهما وسأل:

- ماذا تظن فيما سمعت وقرأت يا سيد براون؟

جاءت إجابة السيد براون كالتالي، قام ودار حول المنضدة إلى حيث أجلس، ومدَّ لي يده فأخذتها، ثم استدار نحو السيد هوكسي وقال بطريقة لطيفة:

- لدى السيد فُرلونج حقٌّ فيما قرر.

ثم قال لي:

- فُرلونج، كان الأفضل لك أن تصير محاميًا. غضبت قليلًا حين تلقيت رسالتك أمس، لكني الآن راضٍ بما فعلت.

تركت سانت لويس إلى دالاس في نفس الليلة بعدما نسَّقت مع رئيس الشرطة جيم أرنولد، وبعض المواطنين المحترمين، كي يرافقوني إلى أونتاريو، ليشهدوا في قضية رقم 2 المُعلَّقة.

الشهود الذين اخترتهم يعرفون رقم 2 منذ أعوام، ويعرفون سمعته وصِلات عمله.. إلخ، وقد وصلنا جميعًا في الوقت المناسب، وقبل جلسة الاستماع.

بعدما سمع القاضي شرحَ الأدلة، أودع رقم 2 السجن في انتظار أوراق تسليم المجرم التي سيرسلها كلٌّ من رئيس الولايات المتحدة، وحاكم كندا العام.

دافع عن رقم 2 محاميان معروفان وطالبا بإحالة القضية إلى محكمة أعلى. في الوقت المناسب رُفضت المناشدة، واستمرت ذات المحكمة في استكمال الإجراءات، فأخذ محامي رقم 2 القضية إلى محكمة أعلى، وأقرت المحكمة الأخيرة صحة استمرار المحكمة السابقة في عملها، ومن ثَم

حُكم على المتهم رقم 2 بالسجن حتى وصول قرار التسليم.

تركت تورونتو على الفور إلى العاصمة واشنطن، وقد تلقيت بالفعل الأوراق اللازمة من ولاية تكساس. سلمت الأوراق إلى وزارة العدل في واشنطن، فوافقوا عليها وأرسلوها إلى الرئيس كليفلاند لتوقيعها.

بعد أربعة أيام، وصلتني الأوراق الموقَّعة فسافرت إلى تشاتم، أونتاريو، بغرض نقل رقم 2 إلى دالاس، تكساس.

في اليوم التالي، توقف القطار الذي كنت أستقله لمدة عشرين دقيقة في كانادايجوا، نيويورك، لمنح الركاب فرصة تناول الغداء. كنت آكل حين ناداني مرسال، وأعطاني برقية من شريف تشاتم مكتوب فيها: «حين وصل سجاني إلى الزنزانة حيث رقم 2، في تمام الثانية عشرة، وجده ميتًا منذ ساعة تقريبًا. سبب الوفاة غير معروف، على الأرجح هبوط في الدورة الدموية».

أرسلت إليه أنني سأصل تشاتم في الصباح التالي. حين وصلت، كانوا قد شرَّحوا جثة رقم 2، وتكشَّف لهم أنه قد انتحر عن طريق تناول لودانوم (3). لم أعرف أنا أو الشريف أو السجان، كيف وصل العقار إلى السجين. في النهاية، نُقل الجثمان للدفن في جاكسِن، ميتشجن.

عدت إلى دالاس لحضر محاكمة رقم 1، ورقم 4؛ هما من تبقى من المتهمين في قضية الاحتيال. كان المتهمان

قد جلبا عدة محامين مهرة، وتواصل معي محامي الادعاء، وقال إنه قد ظن أن شركة السكة الحديد ستجبره على اختيار محام واحد فقط للدفاع عنه، فقلت له إن المحامي العام السيد براون قد يفعل هذا، فسألني أن أنقل طلبه إلى السيد بران، ففعلت.

أجابني براون أن النقيب توم براون من شيرمان، تكساس هو محامي شركة السكة الحديد في المنطقة، وهو محام ماهر، وسيساعد محامي الادعاء بكل الوسائل، بما فيها تصعيد القضية إلى محامي الادعاء في دلاس.

نقلت ما قيل لي إلى محامي الادعاء. لاحقًا أخبرني السيد براون أنه – محامي الادعاء- قد اختار محاميًا بلا أي صلة لشركة السكة الحديد ليعاونه، وأن السكة الحديد ستدفع أتعابه التي قُدِّرت بخمسة أو ستة آلاف دولار، وهذا كي يؤدي عمله بدافع الجميل أو المساعدة بلا مقابل. بعد المساعدين العاملين في شركة السكة الحديد قد رفضوا التعامل مع القضية أو مع المحامي العام السيد براون.

تم رفض عرض النقيب توم بران، فسارف إلى دالاس لماعونة في الملاحقة القضائية للمتهمين المتبقين. أعطيته الفواتير المُتلاعَب فيها، فاحتفظ بها في جيب معطفه مع وثائق أخرى في صباح يوم القضية.

كان قد تأخر قليلًا عن موعده، فنسي معطفه وقبعته على

المشجب في قاعة الفندق الذي يقيم فيه في دالاس، وحين عاد إليهما مرة أخرى، اكتشف أن الأوراق قد سُرقت.

حين نوديت القضية في المحكمة، طلب محامي الادعاء عدم الاستمرار في القضية، ومن ثَم أطلق سراح المتهمين في الاحتيال.

هنا انتهت قضية احتيال القطن، أكبر قضية احتيال من نوعها حدثت في الولايات المتحدة، أو أي بلد آخر حتى الآن.

انتُخب النقيب براون قاضيًا لمقعد المحكمة العليا في تكساس، وعرف طيلة حياته بنزاهته.

---

(1) مدينة في كندا، لا يقصد لندن إنجلترا بالطبع.

(2) كانت كندا وقتها تخضع لتلك الاتفاقية، حيث كانت تتبع بريطانيا.

(3) مزيج من الأفيون والكحول، كانوا يتناولونه لعلاج الألم والإسهال، وجرعته العالية قاتلة.

قضية لافتة للنظر

التعرف على أب من خلال ملامح ابنته، يؤدي إلى اعتقاله.

التعرف على المجرمين من خلال أوصافهم مهمة صعبة لسببين، أولهما أن مَلَكة صف شخص من الذاكرة نادرة للغاية، وثانيهما أنه من السهل أن يغير المرء شكله بإجراء عدة تغييرات بسيطة، فلا يكون له صلة بوصفه القديم، إلا إن كان الموصوف ذا سمة نادرة تفرقه عن غيره ولا يمكن إخفاؤها.

لم أدعِ قط أن لي عين كاميرا، تلتقط كل التفاصيل، لكني فخور بما شاركت به في هذا المجال أثناء عملي كمحقق في شركة آليجيني فالي للسكك الحديد في أوائل السبعينيات. وسبب فخري هو أنه لم تكن هناك حال مشابهة لما شاركت فيه في حوليات الشرطة في عموم البلاد.

في ربيع عام 1874، أُرسل رجلٌ يدعى جوزيف تشالفونت إلى السيد توماس م. كينج، مشرف التوظيف في شركة سكك حديد آليجيني فالي، يطلب منه شغل منصب مهندس قاطرات.

تشالفونت رجل في السادسة والثلاثين، طوله نحو ست أقدام، وذراعاه وساقاه بالغا الطول. بشرته داكنة، وشعره

أجعد جاف. تقف تفاحة آدم في منتصف رقبته الطويلة، تتناسب مع طول أنفه وارتفاع عظمتي خديه. عيناه سوداوان غائرتان قريبتان من بعضهما، متوجتان بحاجبين كثين يلتقيان عند جسر أنفه. وأخيرًا، أقول إن جبهته كانت ضيقة، مما جعل رأسه يشبه طلقة الرصاص.

هنا يستطيع أن يرى القارئ مدى سهولة التعرف على هذا الرجل من مواصفاته الفريدة، وكيفية وصفي له كأنه صورة.

أرسل تشالفونت كذلك خطاب تزكية من رئيس المهندسين في شركة في بوفالو، نيويورك، قد عملَ بها من قبل، يؤكد فيها أن الرجل ماهر وكان من أفضل الموظفين على مدار عامين، وأنه قد ترك العمل لديهم بناء على رغبته.

المشرف السيد كينج ملاحِظ جيد، ويستطيع الحُكم على الناس جيدًا، فأعجبه تشالفونت ولائم احتياجه الشديد لموظفين، فاختبره فيما يخص خطوط حركة القطارات، ووضعه في فترة تمرين على الطرق الجديدة التي لم يالفها حيث كان يعمل من قبل، ليعرف فيها جيدًا المخاطر وأماكن التفريعات والإشارات وغيرها، كما أعطوه نسخة عن قوانين وقواعد الطريق. بعدما أنهى مرحلة الاختبار، أولوه مسؤولية قاطرة الشحن رقم 42، التي تربط بين مدينة النفط الجنوبية، وبيتسبرج.

في يوم، تولي أمر قطار يحمل حاويات النفط الفارغة

من بيتسبرج، لينقلها إلى مدينة النفط، ووصل في الموعد المناسب وبسلام. في الليل والتالية تولي أمر قطار يحمل أربع وخمسين حاوية نفط متجهة إلى بيتسبرج. في منتصف الطريق تلقى أوامرًا بالسير على القضبان الجانبية ليسمح بالقطار المقابل القادم من الشمال أن يعبر جواره، فامتثل للأوامر.

حين مرت أول قاطرة بجواره، لاحظ أنها مصابيحها الحمراء مضاءة، وهو تحذير لرجال السكك الحديد أن هناك قاطرة أخرى تتبع الأولى على نفس القضبان، وهنا وجب على تشالفونت أن يلتزم القضبان الجانبية حتى تعبر القاطرة الثانية، لكنه لم يفعل ذلك، وعاد إلى القضبان الرئيسية متجهًا نحو الشمال إلى بيتسبرج.

بعد ميل ونصف من مكان رجوعه إلى الخط الرئيسي، هناك منعطف يدعى منعطف سكرابل الصعب، وهو الأخطر على هذا الخط. عند هذا المنعطف تصادمت قاطرة تشالفونت مع الجزء الثاني من القاطرة القادمة من الشمال. كلا محركي القاطرتين في نفس الوزن والحجم، لذا حين تصادمت القاطرتين دُمرتا وانتشرت النيران وأمسكت في حاويات النفط حتى انفجرت وأغرق النفط المشتعل نهر آليجني، حمل تياره القوي البقع المشتعلة لأميال، ونشر الدمار على امتداده.

قُتل إطفائي تشالفونت في الحادث، وكذلك رجل المكابح

في الأمام، واحترقت جثثهم وسط النفط المشتعل.

قيمة النفط المحترق قُدرت بمائتي ألف دولار، وخسر الشركة لم تكن تقل عن خمسمائة ألف دولار، بالإضافة إلى خسارة خمس أرواح، وكل تلك السائر سببها إهمال تشالفونت.

للحظ الحسن – أو السيئ- نجا تشالفونت لأنه قفز من القاطرة قبل التصادم، وتسلق مرتفعًا طوله أربعمائة قدم تقريبًا. أحرق اللهيب ملابسه وظهره ومؤخرة رأسه، لكنه نجا وهرب عبر التلال.

علم العاملن في شركة بيتسبرج بالفاجعة، فعرعوا إلى موقع التصادم ووصلوا إليه في صباح اليوم التالي. وهنا، علم المشرف كينج ما أدى إلى وقوع الحادث، فاتصل بي لأذهب إلى الموقع على متن أول قطار. كنت في مدينة النفط وقتها، فغادرت سريعًا ووصلت مكان التصادم عند الظهيرة. حين وصلت رأيت السيد كينج يسير على مسافة من طاقم رفع الأنقاض لتحاشي ضوضائهم، ثم يجلس على قطعة خشبية ويخبرني بما عرفه عن ملابسات الحادث، وأسهب في وصف تشالفونت لي، حتى إنه ظلَّ يتكلم قرابة ساعة، ثم أضاف:

- توم، هل تظن أنه في وسعك التعرف على هذا الرجل من الوصف الذي وصفته لك؟

- بالطبع، هو يذكرني بوصف رجل أعرفه يعمل في السكة الحديد، يُدعى مورج إروين.

ابتهج الرجل وصفق حماسًا وقال:

- لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟! هو بالفعل يشبه مورج إروين.

- هو يشبهه يا سيد كينج من بعض الزوايا؛ تشالفونت أطول، تفاحة آدم في عنقه بارزة أكثر، وهكذا. باختصار، إروين هو نسخة مُعدَّلة من تشالفونت.

- توم، أعرف أنك قادر على التعرف على الرجل بمجرد رؤيته. أريدك أن تعثر عليه لأجلي، وتحضره بأي ثمن. احبسه!

قال لي السيد كينج أنني سأجد خطاب التوصية التي أعطاه له تشالفونت في ملفه في مكتب بيتسبرج.

ركبت أول قطار لبيتسبرج وقابلت السيد جو رينهارت -رئيس كَتَبة السيد كينج- وأعطاني خطاب التوصية، فذهبت إلى بوفالو لمقابلة الرجل الذي كتب هذا الخطاب، الذي قال لي حين قرأه إن الورق المستخدَم في المراسلات حقيقي، لكن الخطاب نفسه وطابع البريد والإمضاء كلها مزيفة. هو لم يكتب هذا الخطاب ولا أكَّد على ما فيه، لكنه تعرَّف على خط تشالفونت.

عرفت أن تشالفونت كان يعمل مُدرِّسًا في بداية حياته، وكان راتبه أقل مما يُمكنه من الإنفاق على زوجته وأولاده، فانتقل إلى بوفالو حيث عمل في صيانة عربات نقل متاع المصطافين، وكان عمله يتلخص في تلميع محركات العربات.

لم يكن راتبه في هذه الوظيفة كاف كذلك، ولم يجد مفرًّا من الانتقال من منزل لآخر كل شهر؛ هربًا من دفع الإيجار.

في يوم، دخل إلى رئيس المهندسين في الشركة التي تدير عربات نقل المتاع، وسرق مجموعة أوراق مراسلات، وكتب لنفسه خطاب التوصية الذي أعطاه للسيد كينج، وختمه ليلًا بختم الشركة. في هذه الأثناء، صار خاملًا متراخيًا حتى إن رئيس المهندس وبخه.

أخبرني رئيس المهندسين قد سرَّح تشالفونت قبل سفره إلى بيتسبرج؛ فشل تشالفونت في سداد ديونه، فبدأ الديَّانة يحاصرن الشركة ويطالبون بالحجز على راتبه، فاضطر الرئيس إلى طرده.

قال كذلك إن عائلة تشالفونت في مكان ما في بوفالو لكنه لا يعرف تحديدًا لأنهم ينتقلون من مكانٍ لآخر دومًا. شكرته ثم قررت أن أقابل مشرف الشرطة فيليبس، وطلبت منه أن يرسل لي ضباطًا يعرفون كل خبايا العاملين في السكك الحديد في بوفالو، فأرسل لي المفتش توني كولينز

ليساعدني.

بدأنا على الفور في زيارة البقالين والقصَّابين وباعة الحليب في المنطقة حيث يسكن العاملون في سكك حديد بوفالو. بحلول ما بعد الظهيرة، وجدنا أن عددًا من الباعة يعرفون عائلة تشالفونت، لكنهم يجهلون مكانها الحالي.

في الساعة الثالثة، بينما أسير أنا وكولينز في شارع يدعى هاوارد، لاحظت مجموعة من ست أو ثمانية أطفال يلعبون أمام صف من الأكواخ الخشبية، أو لنقُل صفًا من العشش. لفت نظري فتاة ترتدي فستانًا أزرقَ قذرًا، بسبب شبهها الشديد بأوصاف تشالفونت. كذلك لاحظت وجود متجر بقالة عند المنعطف. حين بلغنا المتجر، قلت لكولينز أن يذهب فيطلب من الفتاة ذات الفستان الأزرق أن توصل مشتريات لزوجته، وأن يخبرها أنه يعيش في في البيت الأبيض عند أول الشارع. حين عاد بالفتاة إلى المتجر، وجدت الفرصة للحديث معها. كانت تشبه الهنود إلى حدٍّ ما، وتكاد تكون صورة طِبق الأصل من مواصفات أبيها.

بينما يختار كولينز المشتروات من داخل المتجر، قلت للفتاة:

- مرحبًا أيتها الصغيرة. أين عمك تشارلي الآن؟

ابتسمت وسألتني:

- هل تعرف عمي تشارلي؟

- طبعًا، أعرفه جيدًا.

قالت فورًا:

- هو في بنسلفانيا يعمل في السكة الحديد.

(العم تشارلي هو شقيق زوجة تشالفونت، ويعمل في خدمة إطفاء حرائق القطارات). قلت لها:

- هل عاد والدك بعد؟

- أجل، منذ يومين، لكنه مريض.. أوه.. لقد أخبرني ألا أقول لأحد هذا.

قلت لها:

- لا بأس. قولي لي، في أي منزل تسكنين؟

- في الأوسط. ذاك الذي تغطي نوافذه الخِرق.

همست لكولينز أن يرسل الفتاة بعيدًا، ثم ذهبنا سويًّا إلى المنزل الذي أشارت إليه، فذهبت أنا أُطرق على الباب الأمامي، وذهب كولينز إلى الخلفي.

فتحت زوجة تشالفونت الباب، ثم كادت تطرقه في وجهي بعدما سألت عن جو تشالفونت، زوجها، لولا دفعتُ الباب ودخلت. لم أرَ أحدًا في الصالة، فقصد الحجرة الخلفية حيث وجدت تشالفونت جالسًا أمام نافذة، ورأسه ظهره

مغطيان بالضمادات.

قال حين دخلت الحجرة، ودون أن يتحرك:

- حسنًا يا سيد فُرلونج، لقد عثرت عليَّ.

- أجل يا جو.

بدا لي أن أحدًا قد تحدث معه عني بينما هو في رحلة هربه أو في طريقه إلى بيته. هنا أريد أن أقول إنني لم أرَ تشالفونت قبل دخولي الحجرة، ولا رأيت صورة له، بينما هو يعرف شكلي ويعرف صوتي حين تكلمت.

كنت أشك أن تشالفونت يعرفني، لذا لم أتحدث أنا مع ابنته وهي أمام المنزل، وفضّلت الحديث معها عند المتجر.

هذه هي المرة الأولى التي يختار فيها محقق طفلة من وسط أطفال لمجرد شبهه الشديد بوالدها الذي لم يرَه المحقق من قبل.

ألقيت القبض على تشالفونت وأرسلته إلى السجن، ثم ذهبت لأبلغ ما حدث للمشرف العام السيد لورنس، حسب أوامر السيد كينج سابقًا. كنت قد توقعت الثناء على جهودي في القبض على تشالفونت بهذه السرعة، لكن حين دخلت مكتب رئيس المشرفين، قابلني بالتقريع واللوم، وقال:

- سيد فُرلونج، لقد أوقعت الشركة في المشاكل بسبب

اعتقالك لتشالفونت.

فقلت له:

- لماذا يا سيدي؟ لقد أمرني السيد كينج أن أعتقله مهما كان الثمن، وأنا نفذت أوامره.

قال بصوت تعس:

- ما كان لك أن تفعل. من خلال تقاريرك التي أرسلتها من بوفالو، عرفت أن تشالفونت لم يكن مهندسًا، بل موظفًا غر مؤهل، مما يجعل الشركة التي وظفته – شركتنا- هي المسؤولة عن الخسارة الواقعة، وتعويض الدمار. هل تفهم ما تسببت فيه؟

ساءني قوله، فأجبت:

- سيد لورانس، لو لم تريدوا اعتقال هذا الرجل، ما كان للسيد كينج أن يأمرني بهذا. أننتم مديونون لي بالعرفان لما فعلت، لكنني لا أرى إلا نكران الجهد. لا داعي لتسريحي من منصبي كمحقق لدى الشركة؛ أنا أستقيل الآن.

قال السيد لورانس:

- سيد فُرلونج، اعذرني. أنا أريد أن أشكرك على جهودك في هذه القضية والقضايا السابقة، لكن حين تصل هذه القضية إلى المحكمة، لن يتحمل تشالفونت شيئًا، وسندفع نحن كل التعويضات.

- يمكنني أن أصلح هذا.

- ماذا تقترح؟

- سأكلف محاميًا بالمطالبة بإطلاق سراحه بكفالة، وتاريخ انعقاد المحاكمة التالي بعد الإجازات سيكون بعد ثلاثة أشهر. من الصعب أن يعثر عليه أحد وقتها إن فر الآن.

قال السيد لورانس:

- تأكد من أن خطتك ستفلح، وساكون لك شاكرًا.

وهكذا فعلت، واختفى تشالفونت بعد إطلاق سراحة، ولم يعثر عليه أحد، فحُجز مبلغ الكفالة.

لم يسمع أحد شيئًا عن تشالفونت حتى إضراب عمال السكة الحديد في بيتسبرج عام 1877، حين ظهر مرة أخرى متنكرًا، ووجد وظيفة في شركة سكك حديد بانهدنل، وشغل منصب قيادة قاطرة، وتسبب في كارثة أخرى بسبب عدم تزويده الغلايات بماء كافٍ، فانفجرت واحرقت رجل الإطفاء. فرَّ مرة أخرى إلى الغابة ولم يسمع عنه أحد بعدها قط.

تعقُّب مخرب القطارات

جريمة صُنفت ضمن أبشع الجرائم في لوس أنجليس.

كيف حصلنا على الاعترافات.

أغلب أصدقائي الذين يعرفون هذه القضية، يزعمون أنها واحدة من أفضل تحقيقاتي؛ قضية «تخريب ويندوت» عام 1886. رغم ما كُتب عن هذه القضية، حقائق كثيرة لم تظهر قط على صفحات الجرائد.

وقعت الجريمة بعد ليلة إضراب «فرسان العمل»، في شركة جولد للسكك الحديد، وكان هذا في صباح يوم 26 أبريل.

اقترب قطار شحن رقم 38 - التابع لشركة ميزوري باسفيك- ببطء من مدينة كانساس الحالية في ولاية كانساس، مقتربًا من موقفه بالقرب من نهر كاو. تلك محرك الجر وعدة عربات بعده القضبان، وانقلبت في النهر. انسحق رجل الإطفاء بينجامين هوروتن، وعامل المكابح جورج كارلايل تحت الأنقاض، وأخرجت جثتيهما من النهر.

مهندس القطار ج. ه. فولر أصيب بجراح بالغة، ومات بعد أشهر قليلة من الحادث. السائق الذي كان في شُرفة القطار الخلفية، ألقي من مقعده إلى الأرض وأصيب بقوة. لم ينجُ سوى عامل المكابح الخلفية، الذي قفز من القطار.

علمنا مما تبقى من القطار أن الحادث قد وقع بفعل المخربين. وثارت ثائرة البلاد وقتها، كون عددًا ممن لقوا حتفهم أعضاء في نقابة السكة الحديد، وطالبت الصحافة برؤوس المخربين مما كلف الأمر. أود أن أضيف هنا أن الوقائعالتي أضيفت إلى ملفات المُدانين في القضية، قد تسبَّب بشكل أو بآخر في حل إضراب فرسان العمل، أو يمكن القول أنها كانت البداية لنهاية تنظيم قوي مثل ذلك.

مارتن آيرن، رئيس مجلس إدارة لجنة فرسان العمل أثناء الإضراب

للقراء الذين لا يعرفون الكثير عن تاريخ هذا التنظيم،

أقول إنه عددهم قد بلغ مليون عضو في عام 1886. لا يوجد شروط طبقية للانضمام إلى التنظيم، حيث أنه يضم كافة أصحاب المهن المختلفة، من كل جنس ولون من الذكور فوق ثمانية عشر عامًا، وكانت تكلفة العضوية دولارًا واحدًا.

لم يكن أحد يعرف تحديدًا أهداف ذلك التنظيم، شأنه كشأن أغلب التنظيمات السرية. بالطبع كان من ضمن أعضائه أشخاص شرفاء، لكنه لم يكن يخلو من الأفّاقين واللصوص والنصابين وطالبي السلطة، والسياسيين المتلاعبين، الذين كانوا يسيطرون على مجريات الأمور داخل المنظمة ولو بالعنف، إن فشل القهر فالقطيعة والنبذ أو ردود الفعل الأعنف تكون حاضرة. باختصار، هذه المنظمة كانت مملكة للإرهاب في الغرب الأوسط.

لأوضح لكم معاملاتهم بشكل أدق، لو أن تاجرًا مثلًا زُلَّ لسانه وذكر عرضًا شيئًا يشير إلى تلك المنظمة أو أحد من قادتها، فستزول تجارته ويُجبر على ترك منطقة عمله. رجال الأعمال يخضعون لهذه المعالمة أو أسوأ لمجرد رفضهم الانضمام إلى المنظمة. في بعض الولايات، من لا ينضم إلى تلك الجماعة لن يتمكن من الوصول إلى أي منصب سلطوي مهما بلغت مهارته.

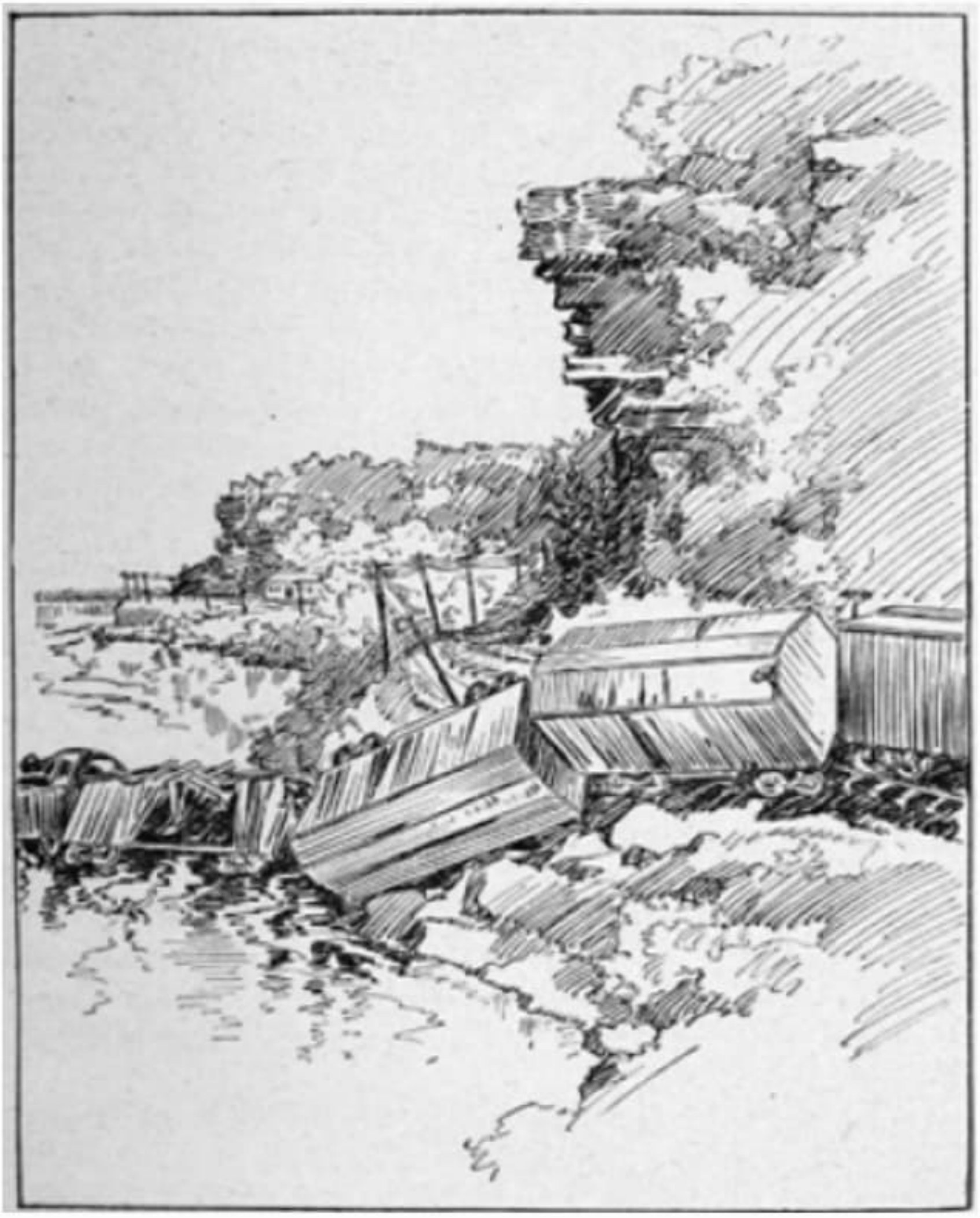

في الوقت الذي حدثت فيه الوقائع التخريبية، كنت منشغلًا في سانت لويس، أحقق في الجرائم التي ارتكبت أثناء إضراب شركة سكك حديد جولد، والتي كنت أعمل فيها رئيسًا للمحققين، فلم أستطع أن أذهب إلى ويندوت لتفقد الحادث قبل مرور شهر من حدوثه. في نفس الوقت، عرضت شركة السكة الحديد مكافأة 2500 دولار لمن يعتقل المتسببين في هذا الحادث، ومكافأة 1000 دولار لمن يُدلي بمعلومة تؤدي إلى هذا الاعتقال.

بعدما فحصت موقع الحادث، عرفت أن هذا العمل

الشيطاني لا بُدَّ أن من قام به واحد أو أكثر من أعضاء منظمة فرسان العمل، إما بهدف الانتقام، أو التحرش بالشركة وقطع طريق الشحن.

بعدما اطمأن قلبي لاستنتاجي، عند إلى سانت لويس، فالتقيت نائب الرئيس هوكسي، وطلبت منه سحب المكافأة المعروضة لاعتقال المجرمين، إذ أنني أعارض مكافآت في ظروف قضايا كهذه. كان السيد هوكسي طريح الفراش وقتها، لكنه اقتنع بما طلبت ونفذه، خاصة بعدما وعدته بتولي القضية بنفسي.

بعد عدة ايام، بينما كنت مشغولاً في القضية الحالية، وقعت محاولة تخريبية أخرى على بُعد مسافة قليلة من الحادث الأول. كان عدد من الحرس على متن القطار، ولمحوا المخربين، فطاردوهم بمساعدة طاقم القطار واستطاعوا اعتقال رجل منهم يدعى و. ج. لويد، وهو عضو في المجلس التنفيذي لفرسان العمل. قبل محاولته الإجرامية، كان يشغل وظيفة عامل تحويلة لدى شركة سكك حديد ميزوري باسيفيك، وهو فرد ناشط في المنظمة.

في هذا الوقت، كانت شركتي في حاجة ماسة لمحامٍ متمرس يتولى القضايا التي نتجت عن فترة الإضراب، فرشحت صديقي الذي حكيت عنه من قبل؛ المارشال ف. مَكدونالد، ممثل الادعاء في سانت لويس. منحه نائب الرئيس هوكسي صلاحية توظيف أي عدد آخر من

المساعدين، فوظَّف القاضي السابق لافلين، والقاضي ر. س. مَكدونالد لمساعدته.

بعد أيام، قابلتُ والمحامين الثلاث الموقَّر بيلي ب. واجونر، المدعي العام لولاية كانساس، وذهبنا إلى موقع الجريمة عند ضفة النهر حيث سقطت العربات، وأخبرتهم أنني أظن المدعو لويد، المُخرّب المسجون الآن في محاولة التخريب الماضية، متورط في حادث ويندوت الذي نبحث فيه، وعلينا أن نستجوبه لنحصل منه على اعتراف.

سألني القاضي مَكدونالد:

- وكيف ستفعلها يا توم؟

- سأفعلها من خلال فارس عمل.

حكيت للسادة الموقرين ملخصًا للخطة التي بدأت تختمر في ذهني عن طريقة الحصول على اعتراف، وقد أعجبتهم خطتي، لكن لم يرَ أحدٌ منهم أنها قابلة للتنفيذ.

هم محقون، بسبب الأوضاع المقلقة في مقاطعة ويندوت، وعليَّ أن أكون شديد الحرص في تنفيذها وإلا فشل كل شيء؛ العمدة والشريف والسجان، وكل الضباط هناك – عدا القاضي هاينمان- أعضاء في المنظمة، ومن لم يكن عضوًا فيها، فهو موالٍ لها. لذا فصعب أن أجد عضوًا من المنظمة لديه استعداد لخيانتها مقابل المال، للحصول على معلومات من السجين لويد؛ لذا قررت تغيير خطتي، فمن

يخون جماعته لأجل المال، قد يخونني لأجلهم.

لذا، حصلت على كتاب يتحدث عن كل شيء عن المنظمة، وكل تفاصيل تجنيد أعضائها، والقسم الذين يتداولونه والإشارات التي يتواصلون بها مع بعضهم، وقررت أن أصنع أنا فارس العمل الخاص بي، فأثق به ولا أقلق.

كان لدي موظف يُدعى جورج فولي، عمل منذ زمن في عدة شركات سكك حديد عبر المقاطعة، فاخترته ليكون رجلي المسؤول عن جلب الاعتراف من لويد.

أخذت فولي إلى مكتبي، وشرحت له بدقة كيف سينفذ خطتي، وأطلعته على أسرار المنظمة، وأخذنا وقتنا في الاستذكار، ثم غادر فولي إلى الويندوت في اليوم التالي ليلعب دور الأخ ألفريد في المسرحية التي ألفتها. عند وصوله لويندوت، قصد مقر المنظمة، وقدَّم نفسه على أنه مبعوث ومفوض ورئيس المنظمة في سكرانتون، بنسلفانيا، ومهتمته تقصي الأوضاع الحالية في ويندوت والغرب عمومًا، وزعم كذلك أن رئيسه الأكبر فوضه في أمر معرفة المستجاد في قضية لويد.

كذلك قابل الأخ ألفريد الشريف – عضو المنظمة- وطلب منه مقابلة لويد، فسمح له على الفور واصطحبه إلى السجن، حيث تحدَّث مع لويد لساعة ونصف ساعة.

بعدما قدَّم نفسه للويد، بدأ في سؤاله عن التهمة المنسوبة إليه، وقال:

- بالطبع يعرف رؤساء المنظمة وأنا معهم أنك شجاع، ولن تعترف، لكن أحيانًا تحت الضغط، قد يضعف المرء. شركة جولد توجه كل جهودها ضدك، وقد ولوا الأمر للمحقق توم فُرلونج، والمسألة مسألة وقت قبل أن يصلوا إليك. لن يوقف فُرلونج شيئًا حتى ينتصر. لن تتحمل المنظمة الآن أن يعترف أحد أعضائها، ويحملها عبء قضايا كهذه، قد تنهي تواجدها للأبد، على جانب آخر، المتهمون في هذه القضية لن يحصلوا على محاكمة عادلة هنا؛ الناس موتورة للغاية، ورجال أخوية رجال الإطفاء وأخوية عمال القطارات وأعضاء الأخويات الأخرى التي ينتمي إليها القتلى لن يصمتوا على ما حدث لرجالهم. لدي خطة لمواجهة كلاب الرأسمالية هؤلاء وإنقاذ الجماعة. أعرف محاميًا من الأعضاء، اسمه تماس، سيخرجك من هنا بكفالة، سنهربك بعدها إلى الغرب حيث لن يجدك فُلرلونج، وسنفعل نفس الشيء مع باقي رجالنا.

قال لويد: لديك حق بشأن الخوف من اعتراف الرجال. أعرف منهم من سينهار فورَ وقوعه تحت قبضة فُرلونج وأعوانه.

هكذا، وافق لويد على الخطة، وخرج بكفالة، ونقله الأخ ألفريد إلى سانت لويس عبر طريق غير مطروق. كنت أعرف

تحركاتهم عن طريق الهاتف، وأرسلت أحد رجالي لمقابلتهم في المحطة ونقلهم إلى شقة أحد معاوني في شارع باين.

في المساء، ذهبت والمارشال ف. مَكدونالد وكاتب اختزال إلى تلك الشقة وقدموني إلى لويد على أنني محامي المنظمة الأخ توماس، وأكدت على موافقتي على خطة نقل الرجال إلى الشرق، فأعطانا لويد أسماءهم لنتواصل معهم.

كانوا خمسة؛ جورج هاملتن، ميكي ليري، روبرت جيرز، فريد نيوبورت، ويليام فازن، وكلهم من أعضاء المجلس التنفيذي لفرسان العمل. أرسلت لويد في الصباح التالي برفقه رجلين من رجالي ليركبوا القطار رقم 1، ولم يعرف لويد أنه في رفقة حارسين.

ذهبت أنا إلى كانساس لحضور اجتماع بيني وبين محاميي شركة باسيفيك في فندق سانت جيمس، وانتهى الاجتماع قرب المساء وأسفر عن موافقة على إلقاء القبض على الرجال الين ذكرهم لويد، والمتورطين في جريمة ويندوت.

هرعت أستخرج أوراق الاعتقال، لعلمي بضرورة التحرك سريعًا. بعدها اصطحبت الشريف وفرانك توت؛ الرجل الذي وظفته لحراسة الشركة وقت الإضراب.

أول من ألقينا القبض عليه كان جورج هاملتن، رئيس اللجنة التنفيذية المسؤولة عن الإضراب، ووجدناه في أرموروديل متنكرًا في شخصية رجل شرطة. حين دلوني

عليه، اتجهت نحوه وقلت:

- أريدك أيها الشرطي.

- لأي أمر؟ جريمة قتل؟

لو أن هاملتن قد ضُرب بمقرعة على رأسه لما تفاجأ هكذا. قبل أن يدرك ما يحدث، جُرِّد من سلاحه وانتزعت عن صدره شارة الشرطة. حاول الهرب، لكنه فشل وانهار وأراد أن يعترف. أخذناه إلى السجن على الفور.

ثم انطلقنا إلى أرموروديل وألقينا القبض على روبرت جيرز، وكدنا نفقد رؤوسنا حين اقتحمنا باب حجرة مستأجر غاضب، كاد يطلق النار علينا. ثم اعتقلنا فريد نيوبورت عند عشش قُرب النهر، وتركنا زوجته وأبناءه الستة مكلومين.

ثم اتجهنا إلى مدينة كانساس واعتقلنا مايك ليري، ولم يتبقَّ سوى ويليام فازن الذي واجهنا صعوبة في تحديد مكانه، لكننا تتبعنا عمله في توزيع الثلج حتى وجدناه، واعترف من فوره. بعد الإفطار أخذته إلى حجرة في فندق سانت جيمس حيث التقينا المحامين. ترجاهم أن يعفوا عنه لأجل أبنائه وزوجته المريضة، فقال:

- لم يُلقَ القبض عليَّ من قبل، وقد خدعوني حتى أنفذ هذه الجريمة. لعنة الله على فرسان العمل.

أقسم إنه سيفشي كل الأسرار التي يعرفها، فقلت له أنا والمحامون أن يلتزم الصمت إن شاء ذلك، لكنه قال:

- أنا مُثقَل بالذنب منذ فترة، وأعاني منه. أريد أن أعترف.. أنا أستحق هذا.

ثم حكى لنا كل تفاصيل الجريمة بدقة، حيث خططت المنظمة لتخريب قطار ركاب، فسرقوا بعض قطع تثبيت القضبان، وهذا ما تأكدنا منه بعد معاينة موقع الجريمة.

جيرز ونيوبرت اعترفا أيضًا، وأجِّلت محاكمتهما إلى يناير. مع كل التفاصيل التي أدلى بها المعتقلون، لم تستطع هيئة المحلفين الوصول إلى حُكم. نجح رجال المنظمة في دس رجالهم من القضاة والضباط في هيئة المحكمة، وجلبوا أفضل محامين في الغرب للدفاع عنهم، ومنهم المحافظ السابق تشيس ب. جونسون، والسيناتور السابق ويليام وارنر، وغيرهما. باختصار: أنفقت المنظمة الكثير وبسخاء للخروج من هذه الورطة.

بعد بطلان الدعوى، طلب محامو الدفاع تغيير محل نظر الدعوى إلى مدينة أولاث، فأرسلت المنظمة من فورها أعضاء إلى هناك، ومن خلال التحايل والتدليس، استطاعوا تجنيد كل ذكر في مقاطعة جونسون، مما أدى إلى بطلان الدعوى مرة أخرى.

في هذه الأثناء، جرى تغيير إداري في الشؤون القانونية،

فأُبطِلت كل الدعوى القضائية المرفوعة من الشركة، وأطلق سراح الجميع بما فيها الثلاثة الذين اعترفوا بجرائمهم.

كانت البلاد تمر بظروف استثنائية في هذا الوقت، ولم يكن العمال على عِلمٍ بأهمية وجود اتحادات عمالية، وقد انقادوا كالقطيع إلى فرسان العمل، حيث علموهم أن أي عمل إجرامي قد يكون جائزًا ما دام ارتكب أثناء إضراب، أو ضد شركة أو مؤسسة يرونها ظالمة، وما أكثر مظلومياتهم التي أدت إلى إضراب شركة جولد بلا أسباب حقيقية.

ما أهمَّني ورجالي أو حماية الشركة من أعمال العنف والتخريب خلال الإضرابات، وقد عرفت أن رؤساء هذه المنظمات المشبوهة لا يهمه نفسًا ولا مالًا مقابل فرض سُلطاتهم واتساع رقعة نفوذهم، والأغرب أن هناك من أعضاء المنظمة من يرونهم على حق، وأنهم بنفوذهم هذا سيحمون مصالح الأعضاء.

وأريد القول هنا، إن هذه الجريمة واحدة من أفظع جرائم القرن، ولولا المصادفة، لسقط قطار كامل بحمولته البشرية في النهر، بدلًا عن القاطرات فقط.

لكن بعد أعوام، تزايد عدد الصالحين وسط الأعضاء، وتشجع عددٌ منهم على فضح المنظمة وأفعالها رغم كل ما أنفق من أموال لإسكاتهم. على جانبٍ آخر، لم تكن تلك الأموال لتُقارَن بما أنفقته المنظمة لاحقًا في أبشع تفجير

تخريبي في التاريخ، تفجير ميدان لوس أنجليس، وقد استخدموا الديناميت، فصارت هذه هي الجريمة الأبشع التي شهدتها في حياتي.

بسبب عملي في القضية السابقة، تكبدت عداوة أعضاء المنظمة، بداية من رئيسها إلى أصغر أعضائها. في عام 1889، توليت منصب رئيس الخدمات السرية في مكتب وزارة المالية في واشنطن، بناء على طلب الرئيس هارسون. لم أكن متلهفًا لقبول هذه الوظيفة، خاصةً لضعف راتبها، وكنت مرتاحًا في عملي في سانت لويس في الوكالة التي تحمل اسمي، لكني قبلت هذه الوظيفة بعد التماس الأصدقاء.

بشكل ما، تسرَّب خبر منصبي الجديد إلى واشنطن، ومنه إلى فرسان العمل.

في أول فترة عمله، سافر الرئيس إلى دير بارك، للنقاهة من إجهاد ألمَّ به بسبب الرسائل والبرقيات التي انهالت عليه من أرجاء الولايات، كلها تنذر بانتقام فرسان العمل مني. أرسل إليَّ الرئيس للقاءه في البيت الأبيض ليخبرني بأمر هذه الاحتجاجات، فأبرزت لخطابات من الحاكم السابق جونسون، والعمدة ويليام وارنر رئيس مستشاري الدفاع عن المجرمين الذين اعتقلتهم في ويندوت، وكلها تقول بما لا يدع مجالًا للشك إنني لم أقم سوى بعملي، وأنني احترمت المتهمين أثناء القضية.. أي أنني لم أَقُم بعمل غير شريف.

قال الرئيس:

- بالطبع يا فُرلونج، وسأعيِّنك بمجرد أن تهدأ هذه الزوبعة.

قلت له إنني ما دمت قد قبلت هذا المنصب، فيجب أن أتولاه في موعد أقصاه الأول من يناير، فأكد لي أنني سأتولاه قبل الموعد المذكور.

استدعاني الرئيس مرة أخرى قبل الأول من يناير بعدة أيام، وطلب مني أن أستلم عملي في وزارة المالية. عند وصولي هناك، لم أجد السكرتير السيد يندوم؛ كان مريضًا أقعدته عِلته عن العمل. تواجدي في واشنطن أثار شائعات تعييني مرة أخرى، ومن ثم استفز فرسان العمل، وأغرقوا البيت الأبيض مجددًا بطوفان رسائل احتجاجية، فتأجل تعييني مرة أخرى ولم أجد سوى رفض الوظيفة والعودة إلى سانت لويس.

أعترف أن خطتي قد حركت القضية منذ البداية، ولولا تدخُّلي ما عرف أحدٌ مكان لويد، لكنني فخور أنني كنت من أسباب الضغط على هذه المنظمة حتى انكشاف أمرها ولو بعد حين.

اعتقال ويس واتس

بعد اعتدائه على الشرطة، المجرم يسقط على يد رجل واحد

خلال عامي 1875- 1876 كنت رئيس المحققين في شركة سكك حديد آليجيني. في يوم، طُلب مني الذهاب إلى بروكفيل، بنسلفانيا للتحقيق في نهب مكتب الشركة الليلة السابقة.

عند وصولي، وجد المكتب عبارة عن حطام، وقد فجر المجرمون الخزانة بالديناميت، واختفت محتوياتها من أوراق وتذاكر قطار وبعض المال. بعد تحريات سريعة، عرفت أن من قام بهذه الجريمة عصابة واتس الشهيرة.

تتكون عصابة المجرمين هذه من ثمانية رجال، ولطالما روَّعوا مواطني جيفرسون وكلاريون، غيرها من المقاطعات، وتشابهت أساليبهم مع أساليب العصابات الأخرى غرب ميزوري.

لم تتكن هناك جريمة يتكبرونها أو يستصغرونها، لكنهم فضَّلوا التزوير والقتل والسرقة وتفجير الخزانات عن غيرها من الجرائم.

زعيم هذه العصابة يُدعى ويس واتس، وقد كان صانع سلاح في بروكفيل قبل أن يحترف الإجرام. عمره 28 عامًا،

وطوله خمس أقدام وإحدى عشرة بوصة، ووزنه نحو مائة وتسعين رطلًا. كان دائم التباهي بقدرته على صنع الأسلحة واستخدامها، وواحدة من حيله المفضلة إطلاق الرصاص على تفاحة فوق رأس أخيه من مسافة عشرين خطوة.

ويس واتس

أبلغتُ مشرف الطرق السيد ديفيد مَكجرو أنني مقتنع أن عصابة واتس هي من نفذت جريمة بروكسفيل، وأنني أؤمن

أن العصابة ستكمل جرائمها في مكاتب شركات السكة الحديد حتى تنتهي منها. رقال السيد مَكجرو:

- إذًا، ابذل قصارى جهدك في القبض على هذه العصابة، وستعفى من مهامك الأخرى حتى تنتهي من هذه القضية.

تولَّيت على الفور المهمة، وزرت الإصلاحية الغربية في آليجيني، حيث قابلت واحدًا من أعضاء عصابة واتس، والمدان في جريمة سرقة حصان، ويمضي عقوبة عشرة أعوام. اسمه لافايت إدواردز، عمره خمس وثلاثون عامًا، وله أخ كان على صلة بالعصابة حتى عام قبل القبض على لافايت. ترك العصابة وقتها لتعبه من حياة العصابات، واتجاه عصابة واتس إلى جرائم ذات طبيعة وحشية، فخشي أن يضيع مستقبله أو يمضيه في السجن. اختفى الشقيق المدعو هوراس إدواردز، ولم يعد أحد يعرف مكانه.

عرفت لافايت بنفسي، وأخبرته أنني أعرف صلته وأخوه بعصابة واتس، وانني اتمنى ان يدلني على هوراس فاحصل من على معلومات عن العصابة تعينني على الإيقاع بها. قال لافايت إن أخاه سيخبرني بكل ما يعرف، على شرط ألا يحاكم على الجرائم التي ارتكبها أثناء انضمامه للعصابة. أكدت عليه الاتفاق وهو المتعارف عليه من إعفاء المجرم من العقوبة في حال اعترافه والمساعدة في القبض على شركائه، واعتباره شاهدًا لا مجرم.

كذلك عرضت عليه أن يساعدني بما يعرف عن العصابة، وسأبذل كل جهدي لتخفيف الحكم عنه. أخبرني أن هوراس يعمل في مزرعة قرب فيرميليون، إلينوي، وأنه انضم إلى الكنيسة ويعيش حياة شريفة تقية.

وجدت هوراس حيث قال أخوه، وتأكدت أنه ذو سمعة طيبة، والجميع يحترمه. بمعنى آخر، الرجل صادق كل من عبروا في طريقه خلال الوقت الذي أقامه في البلدة.

استدعيته وأخبرته مَن أكون، وأنني قابلت شقيقه وحكيت له ما اتفقنا عليه، وعرضت عليه أن يعود معي إلى بنسلفانيا على نفقتي وسأستأجر له مكانًا في قرية قرب بروكسفيل، حيث لن يتعرف عليه أحدٌ، حتى أجهز اعتقال عصابة واتس، وسوف أعيده إلى إلينوي ولن يعرف أحد من معارفه هناك أين كان، ولا هويته الحقيقية التي أخفاها عنهم.

قال هوراس على الفور أنه صار رجلًا تقيًا، وسيبذل جهده ليوقع بالمجرمين، ويمنع عن الناس شرورهم.

قلت لأصحاب المزرعة التي يعمل فيها، أنه مطلوب للشهادة في بنسلفانيا، وسيعود إليهم خلال أسابيع.

بمعاونته، عرفت مكان أعضاء العصابة، ما عدا واتس، الذي قيل إنه في بادوكا، كنتاكي، وقد عرفت هذا بمساعدة شقيقة زوجته.

من خلال تحرياتي في بادوكا، أَلِفت جرائم النهب التي قامت بها العصابة، ودرست تفاصيلها وأماكنها ومواعيدها، ثم ذهبت إلى السيدة واتس، وادعيت أنني صديق زوجها، وأحد أفراد العصابة. هنا ثارت ثائرتها، وقالت إنها كانت ستسلخني لو كان في متناول يدها وعاء ماء ساخن؛ هي لا تريد أي صلة لها بزوجها أو أيٍّ من أصدقائه. لقد هجرها وابنهما، وهربَ مع زوجة رجل آخر. تعاطفت معها بصدق، وشجبت فعلة واتس وتخليه عنها وعن ابنهما.

السيدة واتس سيدة طيبة، جميلة، في عمر الخامسة والعشرين. قالت لي أخيرًا بعدما اطمأنت لي، إنها سمعت منذ أيام أنه قد افتتح متجر تصنيع إصلاح أسلحة مع رجل آخر يدعى أوليفر بروكس، في شونيتون، إلينوي.

قالت إن واتس والمرأة الأخرى وصديقه يعيشون سويًا، ويتعايشون من رزق هذا المتجر، لكن في الحقيقة مالهم يأتي من السرقة والنهب في كل ليلة.

ركبت قاربًا من بادوكا إلى شونيتون، وهي قرية صغيرة منخفضة. قصدت الشارع والحيد الموزاي للنهر في القرية، ولم أجد صعوبة في تحديد مكان المتجر. أمامه متجر بضائع عمومي، يفترش الطريق بصناديق خشبية خاوية. جلست على أحدها، وغفوت قليلًا إذ أنني قد وصلت قبيل الشروق. لم أستطع أن أذهب إلى فندق دون أن أثير الشكوك، فانتظرت في الشارع أراقب التطورات.

بعد ساعة إلا ربع، لاحظت دخانًا يتصاعد من مدخنة أحد الأكواخ حيث يقع متجر الأسلحة. بعد دقائق انفتح باب المتجر ورأيت من مكاني عبر الشارع أحدهم يكنس الأرضية. رأيت المكنسة لكني لم أتبيّن من يستخدمها، فقمت أقصد المكان.

المتجر عبارة عن كوخ من طابق واحد، طولة أربع وعشرون قدمًا، ومُقسَّم عند المنتصف بعازل.

الغرفة الأمامية ورشة سلاح بمشتملاتها، وفيها مسدسان وبندقيتان. الحجرة الخلفية مفتوحة على الأمامية بباب، تبينت منه أنها حجرة معيشة. قرعت باب المتجر، فأجاب رجل أتى من الحجرة الخلفية ممسكًا بمكنسة، ويرتدي أوفرول أزرق، من تحته قميص، وينتعل حذائين مطاطيين من دون جوارب. عرفت على الفور أن هذا ويس واتس؛ لدي وصف جيد له، ورأيت شقيقه وشقيقته وأمه، وهو يشبههم للغاية. لم أرَ أي سلاح معه سوى المكنسة، فقررت اعتقاله هنا والآن.

حين خرج من الحجرة الخلفية، قلت له:

- هل أنت صانع أسلحة؟

أجاب أنه كذلك، فقلت:

- لدي عمل لك. لدي مسدس قديم، لكني لا أعرف إن كنت ستستطيع التصرف معه.

أخرجت مسدسي من جيب معطفي الأيمن، وأمسكته من المنتصف، فاضطر إلى الوقوف جواري كي يمسكه من مقبضه، فأدرته نحو راسه سريعًا وصحت:

- ارفع يديك.

تردَّد، فكررت أمري، مضيفًا أنني سأفجر رأسه لو لم يمثل فورًا. في الوقت الذي رفع فيه ذراعيه، رأيت رجلًا ذا شعر أحمر أشعث يطل من باب الحجرة الخلفية، ثم تراجع فورًا حين رأى ما يحدث؛ كان في مرمى سلاحي مباشرة.

أمرت واتس أن يستدير، ثم أخرجت الأصفاد من جيب معطفي الأيسر وصفَّدته ويداه مرفوعتان بعد، ثم قدته إلى الفندق الذي يبعد عن الورشة بضع مئات من الأقدام. خلال كل هذا، لم ينبس واتس ببنت شفة، ولا يتململ من أوامري.

في الفندق، وجدت موظف الاستقبال نائمًا خلف مكتبه، وفزع حين أيقظته ورآنا. أخبرته أنني شرطي، وأن واتس سجيني. طلبت منه طعامًا لنا، وعلى الفور أحضره.

طيلة هذا الوقت جلست وواتس ننظر إلى بعضنا في المكتب، ثم حين انتقلنا لطاولة الطعام، نظر إلى الأصفاد كأنما يقول: ألن تنتزع هذه الأصفاد؟

قلت له:

- كُل إن شئت.

أكل بالفعل الكثير رغم الأصفاد. لاحظت أن سجيني لا يرتدي ما يناسب رحلة طويلة، فاشتريت من موظف الاستقبال سترة وعبقة قديمين وجدتهما معلقين على المشجب في حجرة الطعام مقابل خمس وسبعين سنتًا، ثم ألبستهما للسجين، فبدا أكثر كرئيس عصابة لصوص.

ركبنا القطار من هناك إلى شرق سانت لويس في الساعة السادسة. بعد نحو ساعة ونصف من ركوبنا جنبًا إلى جنب في القطار، استدار واتس نحوي وسألني:

- مَن أنت؟ وإلى أين تأخذني؟ وما تهمتي؟

أجبته أنني مُرسَل من شريف فيرمليون، وأنه متهم بجريمة سرقة وقعت في الأسبوع الماضي.

قال لي:

- كيف؟ أنا لم أذهب إلى فيرمليون في حياتي. يبدو أنك مخطئ.

- لم أخطئ. بعض الشهود رأوا السارقين ووصفوك بدقة. طبعًا لو لم يتعرفوا عليك عند وصولنا فيرمليون، فسأعتذر لك وأدفع لك ثمن تذاكر عودك إلى شونيتاون.

- تقول إنك شرطي. أتعرف أنني أستطيع طلب تعويض بسبب الخطأ الذي وقعت فيه حين اعتقلتني؟

- لك أن تطالب بتعويض بالطبع، لكني لم أخطئ.

- الشهود لن يتعرفوا عليَّ، وستدفع ثمن تهورك غاليًا.

- سنرى.

صمت، وكأنه متأكد أن الشهود في فيرمليون لن يتعرفوا عليه، وأنه سيُطلق سراحه.

وصلنا سانت لويس، وقلت له إننا سنبيت هنا الليلة، ثم سنقصد فيرمليون في الصباح التالي، فبدا راضيًا تمامًا.

أسلمته لمجمع المحاكم الأربع، واستلمه مني العمدة مَكدونو، وكان رئيس شرطة سانت لويس وقتها. سجن واتس، وتأكدت قبل رحيلي أن طعامه سيصله.

في اليوم التالي ركبنا القطار إلى إنديانابوليس، ثم أكملنا الطريق حتى وصلنا نهر واباش الذي يفصل إلينوي عن إنديانا. هنا انفجر واتس صائحًا:

- إلى أين تأخذني بحق الجحيم؟! أنت لم تقل لي الحقيقة!

- أجل، لم أقل لك الحقيقة، لكني سأخبرك الآن. أنا آخذك إلى بروكفيل، بنسلفانيا.

- لماذا لم تقل لي هذا من قبل؟

- بعدما حددت مكانك في بادوكا، أبلغت الشريف ستيل شريف مقاطعة جيفرسون، وطلبت منه تجهيز أوراق اعتقالك

حتى أعود بك إلى بنسلفانيا. أعدَّ الشريف ستيل الأوراق، وأصر على أن يرسل معي رجالًا يساعدونني في القبض عليك، فاعترضت وقلت له إنني لن أحتاج إلى أن يكون معي أحد إلا هو إن أراد، فوافق على مصاحبتي. جاءني إلى سانت لويس ومعه الأوراق، لكنه كان يشكو من الحمى ويخشى أن يكون قد أصيب بالتيفود، وأصر على أن يعود إلى بنسلفانيا، وكذا فعل. عرض عليَّ أن أعود معه، لكنني رفضت.

قال واتس:

- هو لم يكن مريضًا على الإطلاق. هو يخشى فقط ملاقاتي لأنه يعرف أنني إن رأيته سأقتله. لقد هربت من ستيل وسبعة عشر من رجاله المسحلين، وكنت وحدي. هؤلاء القوم يخشونني. لذا جئتني وحدك؟ ليس معك أوراق اعتقالي؟

- كلا. ليس معي أي أوراق. ليس معي سواك.

- إذًا لن أذهب إلى أي مكان معك.

- إذًا سأضطر لحبسك حتى تصل الأوراق. كلها جاهزة. كان يمكن أن أحبسك في إلينوي حيث وجدتك، لكنني لا أعرف ما قد يفعله ذو الشعر الأحمر أو رفاقك هناك، ولا تنقصني مضايقاتهم، لذا قررت أن آخذك معي.

سأل واتس:

- هل رايت ذا الشعر الأحمر؟ أين رأيته؟

- كان يطل من الحجرة الخفية للكوخ. رآني أشير إليك بسلاحي، فتراجع.

- يا له من جبان! سأقتله حالما أراه! هل لاحظت أنني ترددت لحظة حين أمرتني أن أرفع يدي عاليًا؟

- لاحظت بالفعل.

- أتعرف فيمَ كنت أفكر حين ترددت؟

- لا أعرف.

- كنت أفكر في أن أقفز نحوك وآخذ منك السلاح.

سألته وأنا أنظر إلى عينيه:

- ولماذا لم تفعل؟

- خفت أن تطلق الرصاص، فيُصاب هو...

صمت هنيهة، ثم بدأ يبكي في هيستيرية. كنا نركب في عربة مشتركة، ولفت بكاؤه نظر راكب معنا. مؤسف أن يرى المرء رجلًا قويًا مثل واتس يبكي كالأطفال. بعدما هدأ قال:

- أنا مسرور أنك أخذتني. لم أرَ لحظة راحة منذ تلك الليل في كاثوليكسبرج، كِنتكي.

- لماذا؟ ماذا حدث هناك؟

- أطلق أوليفر بيتش النار على أبي، جيمس واتس، وكانوا يركبون قاربًا هناك. ألقى هو وبروكس جثة أبي في نهر أوهايو. كنت أعرف أنهما سيقتلانه، لكني لم أشارك في هذا. سأحكي لك قصتي منذ غادرت بروكفيل.

قلت له أنني مهتم أن أسمع ما سيقول، لكن ما سيحكيه لي ربما يؤخذ ذريعة ضده في المحكمة، والأفضل أن يحكي لو أراد في جلسة الاستماع وبحضور محام. لكنه أصر على أن يحكي ما اقترفه وأصدقاؤه من جرائم طيلة مكوثهم جوار نهر أوهايو.

ثمة جريمة تفاخر بها وهو يحكيها، وهي جريمة قامت بها العصابة أثناء مكوثهم في بيت على ظهر قارب ترسو عند شاطي إلينوي المطل على النهر، أمام بادوكا.

جدَّف واتس وبيتش وألستون عبر النهر إلى ناحية كِنتكي، وكانوا يركبون قاربًا بأربعة مجاديف. كان الجو باردًا، وكانوا يبحثون عن نهيبة حين رأوا موقد فحم كبيرًا يستعر في مكتب من مكاتب شركة الفحم قرب السَّد. اقتحم المذكورون باب المكتب، وسرقوا الموقد الملتهب ونقلوه إلى بيتهم على متن القارب. هذا ما يؤكد أنه لا يوجد مستحيل بالنسبة لأفراد هذه العصابة، ولا يوجد ما يستصغرونه أو يستكبرونه من جرائم.

حين وصلنا بروكفيل، أصر على أن يدلي باعتراف كامل،

وقد فعل بحضور الشريف ومحامي الادعاء وأنا. جاء في هذا الاعتراف:

اعتراف ج. و. واتس

تركت بروكفيل في 20 يونيو 1874، وذهبت باركرز لاندينج. حصلت على قارب هناك وأبحرت في النهر. استبدل أبي جيمس واتس سلاحًا بالقارب. بنينا كوخًا فوق القارب وسكنه تشالرز بيتش، أوليفر بروكس، جيمس واتس، ج. و. واتس، سارا م. واتس، ميرتا واتس.

سار كل شيء على ما يرام حتى صلنا نقطة قرب إيرونتون، أوهايو. دعونا امرأة تدعى فاني روز إلى متن القارب. خلال رحلتنا إلى مايزفيل، سرت مناوشات بين أوليفر بروكس وجيمس واتس -أبي-، فأخذ الأخير بلطة يوم السادس من سبتمبر 1874، وخرق قاع القارب. احتججت، فهددني أن يفتح رأسي بالبلطة. ملأ الماء القارب، فاضطررنا أن نرسو. في مساء نفس اليوم، أطلق أوليفر بروكس النار على جيمس واتس، فأرداه قتيلًا لأنه كان يريد أن يبلغ عن أحد الجرائم التي ارتكبوها دون موافقته.

كنت على متن قارب آخر وقتها يبعد ستين ياردة، وكنت أعلم أنه سيُقتَل بمخطط مسبق من بروكس وألستون، وقد وترني هذا. كنت قد عزمت على تنبيه أبي، لولا سمعت صوت إطلاق النار ففزعت وانهرت من الخوف، ولم أعد

إلى الكوخ على متن القارب.

أنا هنا لأخبركم بالحقيقة كلها. أبي لم يسرق شيئًا طيلة حياته، لكنه كان يخفي مسروقات الآخرين ويساعد في المخططات.

حين عدت، وجدت أليستون وبيتش وبروكس يجمعن الأحجار عند الضفة، ويضعونها في جوال مربوط إلى عنق جثة أبي ليُغرقوها في النهر. قال بروكس بعدها أنه يشعر بالراحة بعدما قتله وتخلص من الجثة، ولم يتحدث أحد عما حدث مرة أخرى أمامي، فلم أعد أسمح لهم بذلك. لم أدخل الحجرة التي قُتل فيها لأسابيع، ولم أستخدم بندقيتي التي أردوه بها، رغم أنها كانت أفضل ما حملت من سلاح. كلما نظرت إليها أرى دم أبي.

بعدها، عدنا إلى جرى النهر بحثًا عن سرقات أخرى، ولم نتوقف حتى وصلنا بادوكا، كِنتكي، بعدها اعتقل كل الرجال المرافقين لنا بتهمة سرقة كبرى قمنا بها في بودازفيل، كِنتكي.

أرسلنا جميعًا إلى السجن، وقضيت أنا ثلاثة أعوام، وقضى أوليفر بروكس عامين وتسعة أشهر، وقضى بيت آليستون عامًا وستة أشهر، وقضى تشارلي بيتش ثلاثة أعوام.

بعدما خرجت أنا، عدت إلى بادوكا، وتركت بروكس

وبيتش في فرانكفورت، ولم أرهما من وقتها. بعدما خرج ألستون من الإصلاحية بفترة، ذهب إلى قرب نهر كِنتكي، وسرق متجرًا، فأطلِق عليه النار، وعاد إلى الإصلاحية ليقضي عقوبة خمس سنوات، وما زال هناك حتى الآن. بعدما غادرتُ بروكفيل كوَّنت عصابة مكونة من جون جونسون، ودان ميلر، وفرانك واتس، وفراك لودر، وأوليفر بروكس، وجون لينوس ووالده، وتشارلي بيتش.

أعترف هذا الاعتراف بإرادتي الحرة، ودون رغبة في مكافأة، ودون تهديد أو خوف. أعترف لأنزل عن كاهلي عبء تلك الجرائم. حين كنت في بادوكا، تحدثت وزوجتي عن ضرورة تسليم نفسي إلى الشرطة، لكن لسبب ما لم أفعل هذا.

وقَّع الرجل على ما قال وأقسم على صحته أمامنا جميعًا في يوم الثاني من العشرين من أغسطس 1876.

لاحظت أن واتس قد حاول تبرئة نفسه من قتل والده، على عكس ما شهدت به زوجته، وأضافت أن الرجل لم يُقتل ببندقية واتس فقط، بل إن البندقية كانت في يده.

دُعيت للإدلاء بشهادتي ضد ويس واتس، وانعقدت المحكمة في وقت متأخر بحضور القاضي ستيريت. وقيل لي إن المتهم سيُجلب للحضور إلى المحكمة حين تبدأ جلسة الاستماع للشهادات.

مكثت في مكتب الشريف ستيل قبل الجلسة، ودخل رجلٌ مُسن، حياة الشريف وناداه العم جون.

- مرحبًا أيها العم جون، لم أرك منذ فترة. أين كنت؟

- أنا بخير. قرأت في الصحف أن محاكمة ويس واتس اليوم. أنا أعرف والده من قبل أن يولد ويس. أريد أن أحضر الجلسة بينما أنا في المدينة.

- ستنعقد المحكمة في الواحدة ظهرًا، أي بعد دقائق. لو جلست في قاعة المحكمة، ستراه.

العم جون رجل سبعيني وقور، عاش قرب غابات مقاطعة جيفرسون طيلة حياته، ويعرف جميع سكان المقاطعة. بعدما أنهى حديثه مع الشريف، التفت متجهًا نحو الباب، ثم توقف وقال:

- قرأت في الصحف أن ويس قد اعتقله رجل واحد، ويقال إن هذا الرجل سيحضر المحاكمة اليوم. أريد مقابلته أيضًا.

أشار الشريف لي وقال:

- هذا هو الرجل الذي اعتقل ويس واتس بمفرده، وأعاده إلى هنا.

تعلقت عينا الرجل بي وهو يقطع الحجرة مقتربًا مني، ثم قال:

- هلا وقفت أيها الشاب؟ أريد النظر إليك.

وقفت، فعايننني الرجل من أعلى رأسي إلى أخمص قدميَّ، ثم التفت دون كلمة واحدة متجهًا إلى الباب وهو يقول ويشير نحوي:

- يبدو أن المجرم لم يحتج إلى قوة لاعتقاله.

ثم غادر.

يبدو أن المجرم لم يحتج إلى قوة لاعتقاله!

انعقدت المحكمة في الواحدة ظهرًا، وازدحمت القاعة بالفضوليين بعدما انتشرت القصة على صفحات الجرائد.

لم يظهر الشريف والسجين، فأرسل القاضي شرطيًا ليخبره أن المحكمة تنتظر. بعد دقائق ظهر الشريف برفقة الشرطي لكن من دون السجين. اقترب من القاضي وأخبره أنه لم يستطع أن يجبر السجين على مغادرة زنزانته، وأن واتس هدد بقتل أي من يحاول إخراجه منها للمثل أمام المحكمة.

السجن حجري على طراز عتيق، والأبواب المفضية إليه بعرض قدمين ونصف فقط، وأربع أقدام، لذا على الداخل أو الخارج من الزنزانة أن ينحني. بالداخل فُرُش خشبية، وقد كسر واتس فراشه هذا الصباح وأشهر إحدى قوائمه كسلاح في وجه من يقترب منه.

استدعاني القاضي كي أقترب منه، وقال:

- سيد فُرلونج، أنت اعتقلت هذا الرجل وحدك ونقلته إلى هنا وحدك، وآمرك أن تذهب إلى السجن وتحضره بأسرع ما يمكن.

غادرت المحكمة مع الشريف إلى السجن. رأيت واتس في زنزانته مسلحًا بهراوته المرتجلة، وفشلت في إقناعه بالذهاب معي إلى المحكمة، وهددني أنه سيقتلني لو حاولت الدخول إلى الزنزانة.

وجدت أن محاولات الإقناع غير مُجدية، فقلت للشريف:

- كم من الوقت ستستغرق لغلي بضع جالونات من الماء؟

قال الشريف أن هناك ماءً مغليًا في مطبخ السجن، وبالفعل وجدنا ما أردت. وضعنا الماء في غلاية سعة خمسة جالونات، وأحضرت مغرفة ذات يد طويلة، ثم عدنا إلى الزنزانة مع شرطي ضخم اخترته يدعى كلوفر سميث، ومعه يد فأس. وقف كلوفر -الأعسر- عن يمين الباب، ووضعت الغلاية عند الناحية اليمنى، ثم ربطت يد الفأس بالمغرفة، وملأتها بالماء المغلي وألقيتها نحو واتس دون أن أضطر لدخول الزنزانة. صرخ كالأسد، فرششته بمغرفتين أُخريَيْن، ثم واحدة أخرى حتى انحنى على نفسه يحاول أن يحمي وجهه، هنا دخل كلوفر كما أمرته، وضربه على مؤخرة عنه ففقد الوعي، ثم حملناه إلى المحكمة ووضعناه على منضدة أمام القاضي، حيث عاينه الأطباء وأعادوا إليه وعيه.

لم تكن إصاباته بالغة، مجرد حروق بسيطة للغاية وكدمة عند مؤخرة رأسه إثر الضربة.

بدأت المحاكمة وتُليت الاتهامات واحدة تلو الأخرى، وتعرف عليه المجني عليهم الشهود، حتى جاء دوري وحكيت ملابسات عثوري عليه، وكيف رأيت أمامي أكثر مجرمي بنسلفانيا شراسة وظننت أنني سأستطيع الإيقاع به، وكذا فعلت. لا لمهارة خارقة مني، وإما لظروف خيانة أصدقائه، ويأسه وشعوره بالذنب، أو ربما تفكيره المستمر في ضررة الاعتراف لتخفيف الأحكام عنه. المهم أن النتيجة

هي نهاية خطر عصابة واتس للأبد.

حل لغز الصندوق

مفتاح صغير يكشف جريمة السرقة

في بداية عام 1972، حين كنت أعمل رئيس شرطة مدينة النفط، بنسلفانيا، كنت أجلس في مكتبي في مجلس المدينة، أتحدث مع الكولونيل إ. أ. كيلي، الذي كان وقتها المراقب المالي، ويشاركني نفس المكتب.

الكولونيل في منتصف العمر، مرح متعلم، له خلفية عسكرية حيث تخرَّج في أكاديمية أنابليس البحرية، وأمضى شبابه في خدمة البحرية الأمريكية.

سافر كثيرًا، ونَمَت بينا صداقة، اهتم خلالها بالعمل الشرطي والتحقيقات في الجرائم، وأحَبَّ حكاياتي عن تحقيقاتي السابقة.

كنا نتحدث حين دخل علينا شابان في منتصف العشرينيات من العمر، سألها عن رئيس الشرطة، فاشار الكونويل نحوي، وترك المكتب. لم يكن ثمة داعٍ لمغادرته، فطلبت منه الجلوس؛ ربما يهتم بما سيقوله الشابان لي.

قال أحدهما لي إن اسمه ويليام برويز، وهو مشرف في شركة تعمل في عدة آبار نفط في مقاطعة فينانجو، بنسلفانيا، وتقع على مسافة ستة أميال شمال مدينة النفط.

قال إن بينه في أهايو قرب كليفلاند، وقد اشترى هناك مزرعة صغيرة يعيش فيها والداه المُسنان، يدفع ثمنها بالتقسيط من خلال مرتبه الكبير. يُستحق القسط التالي بمبلغ سبعمائة دولار بعد شهر.

كان يدخر المال في صندوق في دار الاستضافة التي يسكن فيها هنا، وقد أودع في الصندوق محفظة جلدية فيها تسعمائة دولار.

في هذا الصباح، فتح الصندوق بالمفتاح ليخرج منه ملابس، فلم يجد المحفظة ولا محتوياتها، وأكد بعد سؤالي له أن الصندوق كان مغلقًا بالمفتاح.

لم أسأله أسئلة أخرى؛ لقد حكى كل شيء بالتفصيل، بالإضافة إلى أن له سمت مهذب راق لي.

لم يقل مرافقه الذي يشبه نوعًا شيئًا. سألت الشاب الأزل متى يمكنه أن يعود لي بالصندوق في نفس الحالة التي وجدها عليه بالضبط، فقال إن الطريق من وإلى مسكنه، صعب، وربما تستغرق الرحلة أربع ساعات. أوضحت له أن مكسنه خارج نطاق عملي، وليس لي الحق في الذهاب إلى هناك، لكني أوَدّ مساعدته، فقال إنه سيجلب لي الصندوق، وشكرني وانصرف.

انصرف الشابان، ولاحظت أن معهما عربة تجرها الخيول. بينما دارت المحادثة السابقة بيني وبين برووير، جلس

الكولونيل معقود الذراعين ينصت في اهتمام.

أشعلت سيجارًا بينما يقول لي الكولونيل:

- لماذا طلبت منهما أن يحضرا الصندوق إلى المكتب يا توم؟

أجبت بلا تردد:

- لا أعرف أيها الكولونيل.

وكانت إجابتي صريحة تمامًا؛ فلا فكرة لدي عن سبب طلبي هذا غير أنني لاحظت أن رؤساء الشرطة الآخرين لا يهتمون بالشكاوى خارج نطاق عملهم. أنا بالفعل أود لو أستطيع حل لغز اختفاء المال. شرحت كل هذا للكولونيل، فضحك ثم قال:

- توم، أنت بالفعل محقق. لست صريحًا فيما قلت لي، واعذرني؛ ربما هي غطرسة مني أن أقول هذا. على العموم، ساجلس وانتظر النتيجة التي أؤمن أنها ستكون مُرضية.

حاولت أن أقول للكولونيل إنني كنت صريحًا معه، لكنه لم يعطني فرصة.

في فترة بعد الظهيرة من نفس اليوم، عاد لي الشابان يحملان الصندوق، ورآهما الكولونيل إذ دخلا المكتب. قلت لبرويير:

- أريدك أن تضع الصندوق في مكان ووضعية مشابهة

لتلك التي كانت في حجرة سكنك.

قال برويز:

- حجرتنا مربعة تشبه هذا المكتب، لكنها أصغر. ثمة نافذتان عند الجاني الغربي للغرفة، بينهما خمس أقدام.

ضع الصندوق بين نافذتي المكتب، لكن المسافة الفاصلة بينهما كانت أكبر من خمس أقدام. قلت له:

- الآن أريدك أن تقترب من الصندوق كما اقتربت منه هذا الصباح بالضبط، وافتح الصندوق وابحث عن المال كما فعلت حتى تكتشف أنه غير موجود.

اقترب من الصندوق، ثم ركع على ركبته اليمني وأخرج مفتاحًا من جيبه، فتح الصندوق وأسند غطاءه إلى الحائط، ثم أزال الحاجب الصفيحي الذي يفصل الغطاء عن الصندوق.

الصندوق رخيص، مغطى بجلد صناعي، وكان جديدًا نوعًا. عانى الشاب قليلًا في إزالة الغطاء الحاجب الصفيحي كونه قد تعلَّق في أحد الأحزمة التي تُثبت محتويات الصندوق إلى جوانبه(1).

بينما يحاول نزع الحاحب، ركعت جواره أنظر إلى جانبه، ولاحظت أثر بصمة إبهام مزيتة قذرة مطبوعة على غلاف الصندوق وبالكاد تظهر للعيان.

وقف الشاب المرافق على الجانب الآخر من الصندوق، وحين رآني أدقق النظر، دار ليقف جواري. لاحظت أن إبهامه ملوث مجروح طوليًا بجرح غائر عريض. الجرح حديث وقد بدأ يتسع مرة أخرى بعد التئامه، لكن ليس إلى درجة النزف.

أغلب رجال العاملين في مجال النفط تتشبع بالدهون. وقفت وأمسك بيد الشاب أفحص الجرح، ثم أنظر إلى البصمة على الصندوق. أخيرًا قلت له:

- أين مال الرجل؟

أين مال الرجل؟

بدأ يبكي ويقول:

- لو تركتني، سأحضر المال. سألته عن مكانه، فقال:

- خبأته أمس تحت بساط مدخل دار الاستضافة.

شحب وجه بروير وبكى هو الآخر وهو يهتف:

- إلهي! لم أتوقع أن يكون هو من ضمن كل الناس من أخذ المال. هو يعرف كل شيء عنه، وهو الوحيد الذي يعرف أين خبأته. لقد تربينا معًا.. لقد كان زميل دراستي والآن هو رفيق غرفتي. والده ووالدته يعملان في أوهايو ومن أقرب الجيران لنا. قد يموت أبواه لو عرفا أن جيم قد فعل فعلة كهذه. اسمه جين ديفيز.

قلت لديفيز:

- هلا ذهبت مع بروير وأعدت له ماله؟

وعد أنه سيفعل ذلك، لكنه أضاف:

- سيدي، لا أستطيع أن أخرج المال من مخبئه قبل أن ينام كل سكان الدار.

قال بروير:

- لا بأس. أعرف أن جيم سيفي بوعده. المهم يا سيدي ألا تعتقله. لن أستطيع أن أقف في المحكمة ضده. سيقتل هذا أمه وأمي.

قلت له:

- حسنًا. إن لم يعد لك مالك، سأضطر إلى أن أصعِّد الأمر حسب القانون.

غارد الشابين ومعهما الصندوق، وفي اليوم التالي جاء بروير يخبرني أن جيم ديفيز أعاد إليه المال، ثم حاول الانتحار بالسم.

ظلَّ الشابان صديقين بعد ذلك، لا يفترقان أبدًا، ولم يسمع أي من أسرتيهما بما حدث على حد علمي.

في النهاية، قام الكونويل واقترب مني بعينين دامعتين، وقال:

- أيها الرئيس، أنت بالفعل صديق حقيقي، مثلهما تمامًا.

---

(1) هذه الصناديق أقرب لحقائب السفر ذات العجلات الحالية، لكنها مصنوعة من الخشب ومكسوة بالجلد ومقسمة من الداخل بفواصل وأشرطة تثبت المحتويات فلا تنقلب على بعضها، أي أنها أقرب لخزانة متنقلة، وبالطبع كانت كبيرة الحجم.

سرقة قطار جلينكو

اعتقال واعتراف بيلي لوي وجورج إيبر.

جلينيكو محطة صغيرة على خط سكة حديد ميزوري باسيفيك، تبعد عن سانت لويس تسعة وعشرين ميلًا.

وقع سطو على قطار يحمل ركابًا وخطاباتٍ مُسجلة بعلم الوصول في ليلة الواحد والعشرين من فبراير عام 1910. تسلَّل رجلان إلى العربة الأخيرة، أو ما يسميها رجال السكك الحديد بـ «العربة العمياء»، جوار المحرك. لم يلحظ أحد وجودهما إلا بعدما مرَّ القطار بمحطة جلينكو. صعدا إلى سقف عربة المحرك وهدَّدا المهندس وعامل الإطفاء بالمسدسات، وكانا يخفيان وجهيهما بمنديلين يغطيان ملامحهما أسفل العينين.

وصفهما الشهود بأن واحدًا منهما قصيرًا قوي البنية أسود الشعر، والآخر طويل عريض الكتفين ذو شعر بني فاتح ويبدو أصغر سنًا من رفيقه. قالوا كذلك إن القصير كان يمسك المسدس بيسراه، ويده اليمنى مضمدة، ويتصرف كأنه الرئيس في هذه العملية، إلى جانب مهارته في التعامل مع القطار وعرباته.

ما حدث أنهما أجبرا المهندس ورجل الإطفاء على فصل عربتي البريد الأخيرتين عن القطار، ثم انفرد الرجلان بالعربتان والمحرك ومعما رجل الإطفاء والمهندس. أفرغا

محتويات حقائب البريد وأخرجا منها الخطابات لسرقتها. ظلا عاكفين على هذا الفعل حينًا حتى أدركا أنهما يستهلكان وقتًا طويلًا، بينما هناك فرصة متزايدة لقدوم قطارات في الاتجاة الآخر من القضبان أو نفس الاتجاه. أمرا المهندس أن يتحرك بالعربتين ليلحق بباقي القطار في المحطة، وحمل اللصان حقائب البريد المسجل وسارا حتى وجدا كومة من الذرة المحصودة في حقل قرب نهر ميرامك، فاختبأ خلفها.

كانا من قبل قد سرقا قارب تجديف، وخبئاه قرب حقل الذرة عن ضفة النهر. ركباه وأبحرا به حتى قرب سانت لويس، ثم تركاه وأكملا طريقهما على البر.

في صباح الثاني والعشرين من فبراير، كنت في نيويورك حين علمت بخبر السرقة من الصحف، وقرأت وصف الشهود للمجرمين. اتصلت على الفور بمدير مكتبي في سانت لويس وطلبت منه أن يتصل بالسيد ديكسون مفتش مكتب البريد في سانت لويس والمسؤول عن منطقة ميزوري، وأن يخبره أنني أعرف من سرق القطار وأين سنجدهم، وأنني سأعود إلى سانت لويس السبت القادم واعتقلهم لو لم ينجح هو وفريقه في القبض عليهم قبل وصولي.

عندما عدت السبت التالي، وجدت السيد ديكسون في انتظاري. أخبرته أنني متأكد من خلال الأوصاف أن بيلي

لوي هو المتورط في جريمة السطو على قطار جلينكو؛ لقد اعتقلته منذ سبع سنوات في قضية لسطو على قطار آخر في ميزوري، وقد فجروا إحدى عرباته بالديناميت. أخبرته كذلك أن معي اعتراف لوي الكامل بجريمة القطار الذي ذكرته، وبكل شركائه في الجريمة.

وقف لوي وقتها ليشهد ضد شركائه أمامي في حضور رئيس شرطة كانساس وأحد رجال الشرطة، ثم كرَّر اعترافه أمام محامي الادعاء في كانساس، فأعفي من العقوبة بعدما أقسم إنه سيعيش حياة شريفة.

عمل لوي في السكة الحديد في سانت لويس عامل تحويلة، حيث قابل وصادَق عامل التحويلة الآخر جورج إيبلرينج، وعملا سويًا لدى شركة آيرون ماونتن لمدة سبعة أعوام، ثم تركاها ورحلا إلى أكثر من ولاية للعمل في نفس المجال، حتى استقرا في سبوكان، واشنطن.

طيلة هذه الفترة، ظللت أتتبعهما، ظنًا مني أن المسألة مسألة وقت حتى يعود لوي لسرقة القطارات مرة أخرى. خلال عامي 1908، و1909، سُرقت عدة قطارات في واشنطن وعرفت فورًا أنها من أفعال لوي. راسلت الشرطة في شركة جريت نورثرن، وأخبرتهم أنني أعرف من تسبب في الجرائم، لكن يبدو أنهم لم يعطوا اهتمامًا بما أرسلت لهم من معلومات، ولم يردوا عليَّ.

لوي هو المتورط في جريمة السطو على قطار جلينكو؛ لقد اعتقلته منذ سبع سنوات في قضية لسطو على قطار آخر في ميزوري، وقد فجروا إحدى عرباته بالديناميت. أخبرته كذلك أن معي اعتراف لوي الكامل بجريمة القطار الذي ذكرته، وبكل شركائه في الجريمة.

وقف لوي وقتها ليشهد ضد شركائه أمامي في حضور رئيس شرطة كانساس وأحد رجال الشرطة، ثم كرَّر اعترافه أمام محامي الادعاء في كانساس، فأعفي من العقوبة بعدما أقسم إنه سيعيش حياة شريفة.

عمل لوي في السكة الحديد في سانت لويس عامل تحويلة، حيث قابل وصادَق عامل التحويلة الآخر جورج إيبلرينج، وعملا سويًا لدى شركة آيرون ماونتن لمدة سبعة أعوام، ثم تركاها ورحلا إلى أكثر من ولاية للعمل في نفس المجال، حتى استقرا في سبوكان، واشنطن.

طيلة هذه الفترة، ظللت أتتبعهما، ظنًا مني أن المسألة مسألة وقت حتى يعود لوي لسرقة القطارات مرة أخرى. خلال عامي 1908، و1909، سُرقت عدة قطارات في واشنطن وعرفت فورًا أنها من أفعال لوي. راسلت الشرطة في شركة جريت نورثرن، وأخبرتهم أنني أعرف من تسبب في الجرائم، لكن يبدو أنهم لم يعطوا اهتمامًا بما أرسلت لهم من معلومات، ولم يردوا عليَّ.

عرفت أن بيلي لوي ورفيقه في سانت لويس قبل السطو على قطار جلينكو، وعندما قرأت أوصافهما في الجريدة تأكدت من ظني، خاصة أنني رأيته قبيل السطو مضمد الذراع.

بنجرد أو وصلا سانت وليس، استأجر لوي حجرة في بناية في شارع رقم 4، وحولها إلى مكتب لبيع أسهم المناجم في ألاسكا.

بعد السطو، غارد إيبرلينج سانت لويس. ثم جاءت شكوى أحد التجار من كانساس، ذكر فيها أن طرودًا له قد ضاعت في أحداث سرقة القطار، بها شيكات وأذون صرف هامة بمبالغ ضخمة. تم الإبلاغ عن مواصفات هذه الأوراق، وعلى الفور جاء النبأ بظهور أحدها في أحد مصارف هوت سبرينج. بسؤال المرأة التي قدمت الشيك، قالت إن السيد جورج إيبرلنج قد أعطاها إياه مقابل إيجار شقتها لمدة أسبوع.

عرفت بهذه الطريقة أن إيبرلينج قد انتقل إلى هوت سبرينجز، وعرفت عنوانه، وأخبرت المفتش ديكسون، فأرسل أحد رجاله يراقب مسكن المذكور.

في الصباح التالي ذهبت إلى شقة لوي مع رجلين من رجال السيد ديكسون، وجيمس سميث رئيس محققي سانت لويس، رجلين من رجاله، ومساعدي ج. س. ماننينج،

وألقينا القبض عليه. بعدها أمر السيد ديكسون رجله في هوت سبرينجز بالقبض على إيبرلينج، وإحضاره إلى سانت لويس.

بيلي لوي

إيبرلينج

اعترف الأخير أنه حصل على الشيك من بيلي لوي، ثم أتبع ذلك باعتراف كامل عن سرقة قطار جلينكو.

لم يعترف لوي، وأنكر صلته بالسرقة. في اعتراف أيبرلينج، قال إن جيمي لوي، شقيق بيلي الأصغر، يعرف كل شيء عن السرقة، وشارك في جزء منها، لكنه لم يُكمل المشاركة لأنه أصيب بتسمم بسيط ألزمه الفراش. اعترف كذلك أن جيمس لي سرق الأسلحة وأغطية الوجه وأوصلها لشقيقه في بيت أمهما.

المال الذي حصلوا عليه جراء صرف الشيكات والبوالص المسروقة قُدِّر بستمائة أو سبعمائة دولار، أما باقي حقائب

البريد المُسجل فقد خبأها اللصوص في حقل الذرة، واستخرجتها الشرطة فيما بعد، وعرفت أن بها ما يساوي أكثر بكثير من المال الذي صُرِف.

مَثُل المجرمان أمام المحكمة الفيدرالية في سانت لويس، وحُكم على لوي بثلاثة وأربعين عامًا في سجن ليفينورث، وغرامة قدرُها ثلاثة آلاف دولار، أو عامين إضافيين في السجن. حُكمَ على إيبرلينج بثمانية عشر عامًا في نفس السجن، وغرامة ثلاثة آلاف دولار. أما جيمي لوي، فقد مَثُل كشاهد أمام المحكمة بعدما قضى بضعة أشهر في الحبس، ثم أفرِج عنه على أن يقسم أن يعيش حياة شريفة، وهذا ما فعله وعرفته لاحقًا.

جريمة قتل دالاس

اعتقال القاتل، وانتحار المُحرّض على الجريمة

في بداية التسعينيات، تلقيت برقية من جيمس أرنولد، رئيس شرطة دالاس، تكساس، وبن كالبل، شريف المقاطعة، يطلبان فيها حضوري لاستشارتي في قضية قتل.

كنت أعرف الرجلين جيدًا، لذا انطلقت إلى دالاس في اليوم التالي.

وصلت دالاس في مساء الأربعاء، ووجدتهما في انتظاري، ثم ذهبنا إلى حجرتي في الفندق لنعقد اجتماعًا. لأسباب لا تخفى على أحد، لن أذكر الأسماء الحقيقية للمتورطين في هذه الجريمة الغادرة، لكنني سأذكر الحقائق التي أدت إلى إدانتهم، وانتحار المُحرض على الجريمة.

حكى لي الرئيس والشريف ملابسات القضية التي استدعياني لأجلها، فعرفت أنه في ليلة الأحد السابق، واحد من مواطني دالاس البارزين – سأطلق عليه اسم تمبل- استقل عربة كهربية عمومية(1) من أمام إحدى الكنائس قاصدًا بيته. كانت العربة مزدحمة بالركاب – حوالي خمسين راكبًا - الذين كانوا في الكنيسة مع تمبل، يحضرون شعائرَ مسائية. يعيش تمبل عند أقصة المدينة، في مكان راقٍ. حين وصلت العربة بيته، نزل منها وسار

نحو بوابة البيت الأمامية.

بيته مخفي خلف أشجار سامقة، والشارع مضاء بأعمدة إنارة، أحدها ينير النقطة حيث نزل من العربة. بمجرد أن مشى بضع خطوات على الرصيف، ظهر رجل ملون (2) من خلف إحدى الأشجار، وضرب رأس تمبل بما يشبه مضرب البيسبول، وقد رأى ركاب العربة ما حدث. بعدما ضربه، ألقى سلاحه وقبعته وهرب نحو الشارع الفرعي الضيق واختفى في الظلام.

من رأوا الاعتداء هرعوا نحو تمبل الذي فقد الوعي، وحملوه إلى بيته. قال الطبيب الذي فحصه أن جمجمته قد كُسرت من الأعلى حتى محجر العين. لم يعش الرجل طويلًا بعدها.

أُرسِل في طلب رئيس الشرطة والشريف، ووجدا أن السلاح عبارة عن ماسورة غاز قطرها بوصة ونصف، وطولها أربع أقدام. كانت الضربة قوية حتى إنها أثنت الماسورة من منتصفها. وجدا كذلك القبعة التي تركها القاتل، وكانت عريضة الحافة، سوداء، رخيصة، جديدة، ذات حجم مقاس غير معتاد. بدت لي أنها ربما سقطت عن رأس مرتديهما مع حركته العنيفة، كونها بهذا المقاس الاستثنائي.

رأى الشهود القاتل جيدًا، وقالوا إنه زنجي، داكن البشرة،

طويل، قوي البنية، أنيق. اتفق الجميع على أن ملامحه ملامح رجل أبيض ذي أنف دقيق وشفتين رفيعتين، بل إن البعض زعم أنه رجل أبيض دهن نفسه بالأسود.

خلال الاجتماع، عرفت أن لتمبل شقيقًا، يعمل طبيبًا، ويعيش في سبرينجفيلد، إلينوي، أرسلت أرملة أخيه في حضوره، وسيصل يوم الثلاثاء.

أصرَّ الطبيب على أن تطلب الشرطة محققًا خاصة للعثور على قاتل أخيه في أسرع وقت، لذا أرسلا لي.

صحبت الشريف كابل، والشريف أرنولد في اليوم التالي إلى مسرح الجريمة. فحصت القبعة والماسورة سلاح الجريمة، ولاحظت أن الأخيرة جديدة، مقطوعة من أخرى أطول، وفطنت إلى أنها قطعت بهذا الطول كي يستطيع القاتل إخفاءها في ملابسه.

ثم بدأت التحريات.

هناك مستعمرة زنوج كبيرة في دالاس، لكن لم يبدُ أن أحدًا فيها يعرف زنجيًا له ملامح رجل أبيض. كل الشهود أكدوا أنهم لم يروا شخصًا مثله في حياتهم.

قررت أن أبحث عن دافع الجريمة، فلكل جريمة مثل هذه دافع بالطبع.

عرفت أن السيد تمبل كان مشرفًا في مدرسة الأحد

بالكنيسة، وكان يعمل كذلك في بيع الخشب بالجملة، وله شريكان، سأطلق على أحدهما سميث، والآخر بيري.

حين بدأت الشراكة، قرروا عمل بوليصة تأمين على حياة كل واحد منهم بعشرة آلاف دولار، وأن يدفعوا هذه البوليصات من مال تمويل الشركة. عرفت أن لتمبل عداوات مع عدد من المواطنين، منهم شقيق زوجته الذي هدده بالقتل من قبل. وكان قد رفع دعوة ضد مالك مصنع أخشاب يعيش في شرق تكساس، وظلت هذه الدعوى في المحاكم لسنوات حتى كسب تمبل الدعوى قبيل مقتله، وحصل على خمسين ألف دولار. لمالك مصنع الأخشاب سمعة حسنة، لكنه كان قد اتهم بقتل شخص أو اثنين من قبل، لكن المحكمة برأته. مما ذكرت سيفهم القارئ أنني وجدت أكثر من دافع للقتل.

في ظهر اليوم التالي لوجودي في دالاس، أمطرت السماء وأنا في الشارع، لم أقرر وجهتي بعد. رأيت امرأة حمراء الشعر زرقاء العينين تعبر الشارع تجاهي. هي طويلة أنيقة، تغطي وجهها بقع نمش في حجم الظُّفر. كنت أنظر إليها حين شعرت بكف توضع على كتفي، نظرت خلفي فوجدت الطبيب، شقيق تمبل.

سألني:

- ما رأيك فيها؟

أجبت:

- هي أعجوبة الطبيعة.

- أجل. هي أعجوبة الطبيعة. لاحظتها أمس في البناية التي يقع فيها مكتب أخي. كانت تتحدث مع حارس البناية.

بعدما تبادلنا عدة عبارات، تركته لأقابل أشخاصًا ربما يمدونني ببعض المعلومات. لم أستطع أن أخرج هذه الفتاة الملونة من رأسي، وقبل أن أبتعد، عُدت إلى حيث التقيتها لأتحرى أمرها، وعلاقتها بحارس البناية التي كان فيها مكتب القتيل. توقعت أن يعرف الشريف كابل من تكون؛ هو يعرف كل شخص في دائرة عمله، لذا استدرت مجددًا وذهبت إلى مبنى المحكمة حيث وجدت الشريف فوصفت له المرأة. قال لي:

- هذه ليزا جونسون. أنت تعرف إيما جونسون. هي ابنة امرأة مسنة ملونة، وتعيش منذ سنوات مع إيما جونسون بعدما ماتت أمها، فربته الأخيرة كابنتها. يمكن لأغيا أن تخبرك بالمزيد عنها. يمكنني أن أذهب معك إليها لو أحببت.

اتصلنا بالسيدة جونسون، وعرفها بي الشريف وقال لها إني صديقه. طلبت منها أن تخبرني ما تعرف عما قد تفعله ليزا في المبنى التجاري. قالت:

- لا أعرف. كل ما أعرفه أن الزنوج نظموا رحلة خلوية

وذهبت ليزا معهم، وتعرفت إلى شاب زنجي، أوصلها إلى البيت. رأيته، وكان وسيمًا مهندمًا، متعلمًا، أسود كالحبر، ذا ملامح دقيقة كملامح البيض.

هذا وصف مطابق لوصف قاتل تمبل. أكملَتْ هي:

- هو غريب عن هذه المنطقة، ولا يختلط بالملونين، ويعمل كحارس شخصي لسيده الذي يملك مكتبًا في البناية التي ذكرتها.

- ما اسمه؟

- اسمه جون، لكني لا أعرف اسمه بالكامل، لكنه نفس اسم سيده.

سألتها:

- هل سيده يُدعى بيري؟

- أجل. لكنه ليس في المدينة الآن، لقد غادر يوم الاثنين الماضي. قابل ليزا هنا وأخبرها أنه سيسافر إلى سانت أنتونيو ليحضر سباق خيل هناك. هو يراسلها كل يوم، وقد تلقت منه خطابًا هذا الصباح.

سألتها إن كانت تستطيع أن تريني الخطاب دون معرفة ليزا، فأجابت أنها سترسلها إلى متجر الأدوية، حتى أستطيع أن أطالعه قبل أن تعود.

فعلت ما وعدت، وأعطتني الخطاب. رأيت الختم الذي

يوضع مكان الراسل غير واضح، فلا يظهر منه سوى كلمة «سانت أن...» فبدا لي أنها مُرسل من سانت أنتونيو بالفعل حيث من المفترض أن يكون.

طلبت من السيدة أن تحافظ على سرية زيارتي، ثم عرجت على متجر الأدوات الصحية، وأريت صاحبه الماسورة، فقال إنه قد قطعها حسب طلب شاب زنجي، ووصفه بالوصف المعتاد، وقال إنه وشقيقه الأصغر يستطيعان التعرف عليه من وسط المئات. طلبت منه أن يرافقني شقيقه إلى سانت أنتونيو وسأدفع له مقابل وقته.

ارتدى شقيقه أفضل ملابسه وسافر معي في المساء، ووصلنا سانت أنتونيو في الصباح التالي. ذهبنا إلى الفندق، فأعطاني موظف الاستقبال برقية من الشريف كابل قرأت فيها: «اذهب إلى سانت أنجيلو، تكساس، على الفور».

قبل أن أغادر دلاس، طلبت من الشريف والسيدة جونسون مراجعة كل الخطابات التي تلقتها ليزا، وفي اليوم الذي وصلت فيه سنت أنتونيو، تلقت ليزا خطابًا واضحًا عليه ختم سانت أنجيلو. فانطلقنا إلى وجهتنا الجديدة، ووصلنا في الصباح التالي؛ يوم الأحد.

كانت سانت أنجيلو وقتها بلدة صغيرة ترعى الأبقار، وسرعان ما عرفت أن الشاب الذي نبحث عنه قد غادر يوم السبت إلى لامباساس، تكساس، واكتشفت أنني لن أستطيع

أن ألحقه إلا اليوم التالي؛ لا يوجد إلا قطار واحد يمر يوميًّا بالبلدة.

في مساء الأحد رحلنا إلى لامباس، ووصلنا في الثامنة مساء. تقع المحكمة في لامباس، لذا تعج بالزوار. قصدنا أنا ومرافقي مكتب البريد كي نرى إن كانت قد وصلتني برقيات، فلفت الشاب معي نظري إلى رجل ملون يرتدي بذلة ويعتمر قبعة ويقف بعيدًا عن الزحام جوار مكتب البريد.

قال مرافقي:

- هذا هو الزنجي الذي قطع الماسورة في متجرنا.

قلت للشاب أن يقف مكانه ريثما أعتقل المجرم، ثم يتبعنا إلى المخفر دون أن يلحظ أحد. وقف بالقرب من الزنجي، منتظرًا أن يحصل على بريده. بعد لحظات أخذ جون بيري خطاباته من نافذة المكتب، ثم ابتعد ووقف خلف المبنى، وفتح واحدًا منها وأخرج ورقتين نقديتين، ثم بدأ يقرأ الخطاب المرفق المكتوب بالقلم الرصاص.

كنت قد اقتربت منه دون أن يلاحظ هو أو أحد آخر، فرفعت سلاحي في وجهه وأمرته أن يرفع ذراعيه. لمفاجأتي، مدَّ يده تحت سترته ليخرج مسدسه، لكنني أمسكت يده قبل أن يخرجها وأمرته بصوت قوي أن يكف عما يفعل.

نظر لي المارة في الشارع، واحد منهم كان يقف على مقربة منا. طويل هو نحيل للغاية، يرتدي قبعة ذات حواف عريضة للغاية. فورًا أخرج سلاحه ووجهه نحونا، وصاح:

- أنا الشريف. ألقيا سلاحيكما.

قلت له:

- اعتقل هذا الزنجي يا سيدي، أنا ضابط من دالاس ويجب أن أعتقله الآن بتهمة قتل رجل أبيض هناك.

حين سمع الناس أنه قتل رجلًا أبيض، طالبوا بالإعدام الفوري، فقال لهم الشريف إنه سيحميه منهم حتى ينال عقابه بالقانون.

قرأنا في الخطاب الذي معه:

«أرفق مع الخطاب مائة دولار. يجب أن تذهب سريعًا وبهدوء إلى مدينة ميكسيكو، وسألحق بك إلى هناك. الشرطة في إثرنا. الوضع خطر.

إمضاء/ جون بيري.»

أودعنا السجن في وقت الغداء، فطلبت من الشريف أن يطعمه دون أن يمده بسكين أو خلافه مما يمكن استخدامه كسلاح لقتل نفسه، وأوضحت له أهمية أن أعيد هذا السجين إلى دالاس؛ أريد أن أحصل منه على اعتراف يشرح لي فيه سبب قتل تيمبل.

ذهبت إلى المطعم بعدها، وما كدت أجلس حتى دخل عليَّ شرطي يهتف:

- اذهب معي إلى السجن حالًا؛ الزنجي قتل نفسه.

عندما وصلت السجن الذي كان في مقابلة الفندق، وجدت السجن قد أخرج الزنجي إلى الممر، ورأيت أنه قد ذبح نفسه من الأذن إلى الأذن. لم يكن قد قطع الوريد، بل شق فقط القصبة الهوائية. وكان في استطاعته التنفس والحديث بصعوبة.

حين فحصه الطبيب، قال إنه سيموت ولا يمكن فعل شيء لإنقاذه. حاولت أن أقنعه أن يحاول مرة أخرى، فحياته هامة بالنسبة لمن ينتظرونه في دالاس، لكن كل كلامي ذهب هباء.

استدعيت طبيبًا شابًا غير طبيب السجن غير المتعاون هذا، فخاط الجرح وقال إنه قد يشفى إن اعتنينا به. مكثت مع الشاب أنفذ تعليمات الطبيب حتى تعافى بيري قليلًا، واستطاع أن يخبرني أن سيده جون بيري طلب منه السفر إلى دالاس لقتل شريكه السيد تمبل، وانفق سيده على الخطة بسخاء مع وحد أن ينقده خمسمائة دولار بعد إتمام الجريمة. قال الشاب إنه حاول التملص من الأمر، لكن سيده هدده بالقتل ما لم يفعل ما طلب.

قال الشاب إنه في الليلة السابقة لمقتل تمبل، رأى رجلًا

يشبهه تمامًا وكان أن يقتله لولا هرع سيده إليه – وقد كان يراقبه مختبئًا بين الأشجار- ومنعه في آخر لحظة. اعترف كذلك أنه قد تلقى برقية قبل سفره من سان أنجليس بيوم، طُلِب منه فيه التوجه إلى لامباساس، ويستلم خطابًا من مكتب البريد، وهو الخطاب المذكور بالأعلى.

كتبت خطابًا إلى الشريف كابل أذكر فيه:

«الزنجي ذبح نفسه ويحتضر. أوصل الرسالة إلى الصحف وأمرهم بنشرها بسرعة، سأتصل بك لأشرح لك بعد ساعتين».

لم أخبركم أنني بعدما قررت السفر من دالاس لاعتقال بيري، أرسلت رسالة مشفرة إلى واحد من مساعديني؛ د.ف. هاربو، طلبت منه أن يأتي إلى دالاس على متن أول قطار، ويقرأ الرسالة التي تركتها له في الفندق. تشير رسالتي إلى ضرورة مراقبة الرجل الأبيض جون بيري حتى إشعار آخر.

وصل هاربو إلى دالاس يوم السبت، ولازم بيري كظله حسب تعليماتي.

بمجرد أن تلقى كابل بريقتي تواصل مع الصحف كي يصدروا إصدارًا خاصًا فورًا، ووصل بيري نسخة عن الصحيفة وعرف بأمر الرجل الأسود الذي قتل نفسه، فانطلق على الفور يحزم أمتعته ويهرب. في رحلته إلى

مخبئه، وتوقف في كل حانة في الطريق وشرب فيها، فشرب ثلاث عشرة كأسًا حتى وصل.

بعد ساعتين من إرسالي الرسالة الأولى، أرسلت أخرى للشريف كابل أقول فيها:

«الزنجي بخير، سيشفى. غادِر إلى دالاس في الصباح. التزم السرية وقابلني عند تمبل غدًا صباحًا. اعتقل جون بيري بتهمة التحريض على القتل. لدي اعتراف كامل من الزنجي».

تقابلنا عند تمبل في اليوم التالي. تسبَّب طول المسافة التي قطعتها والزنجي في معاناة شديدة له. طلب الشريف طبيبًا ينتظره في السجن، ونُقل إليه القاتل على الفور.

سُجن جون بيري الزنجي، وجون بيري الأبيض في زنزانتين منفصلتين في نفس المبنى، لكن الأخير كان يرى ما يحدث، وبمجرد أن تعرف على الزنجي، حاول قتل نفسه عن طريق ضرب رأسه في القضبان، ولم نستطع منعه في الوقت المناسب. أرسلنا إليه الأطباء والحرس الذي منعوه من إلحاق المزيد من الضرر بنفسه.

نشرت الصحف في اليوم التالي التفاصيل الكاملة عن تورط رجل أعمال شهير مثل جون بيري في جريمة كهذه، فامتلأ السجن بزوراه والمتعاطفين معه، وتلقى إعانات مادية ومعنوية من أشخاص مهمين، وتطوع محامٍ قدير

للدفاع عنه، وأرسلت له سيدات المجتمع الطعام والحلوى من كل صنف.

قال السجين إنه أقدم على الانتحار لشعوره بالإهانة من تهمة قتل شريكه، وأعلن أمام المحكمة أنه بريء وأنه واثق أن المحكمة ستبرؤه. كان مُحقًا، كون الشهادة الوحيدة ضده شهادة زنجي.

تماثل السجين الملون للشفاء، بينما حدث أمر غريب للأبيض.

كانت سيدة قد أرسلت له طعامًا في طبق زجاجي، فأكل ثم كسر الطبق، وشق حلقه بشظية كبيرة منه قبل أن يدرك الحارس ما يحدث، فمات بعد دقائق وأنهى وجود جون بيري الأبيض.

أدين الرجل الأسود في المحكمة، وحُكِم عليه بالسجن مدى الحياة.

عدت أخيرًا إلى سانت لويس، بعدما قطعت أربعة آلاف ميل خلال ذلك التحقيق، لكن كل هذا يهون في سبيل تقديم المجرمين إلى العدالة.

---

(1) تشبه الترام الكهربي الحلي، لكنه مكون من عربة واحدة.

(2) ي أنه ليس من اصل أوروبي أبيض.

أقسى المُدن القاسية!

كيف أعدت تشكيل البلدية.

رسم من جريدة يوضح الهجوم على صالات القمار

تُعد مدينتي دودج، كانساس، وكورين، يوتاه، من أقسى المدن في التاريخ أثناء فترة بنائها. لكن خذها مني – سيدي القارئ- ليس من تلك المدينتين من هي أقسى من شرق سانت لويس في الثمانينيات. المقيمون في سانت لويز كانوا يختلفون تمامًا عن أؤلئك المقيمين في الغرب، خاصة إن كان منهم من يعمل في السياسة، فتكون طبيعته أكثر شراسة من قطاع الطرق، أو رعاة البقر أو سالخي الأبقار.

لسانت لويس نوع مختلف من اللؤم والاعوجاج؛ وقعت البلدية الصغيرة في يد أحط أنواع الرجال، ولم تكن هناك جريمة لا يُنافسون فيها، وأي جريمة تقع هي جريمة عادية مهما بلغت بشاعتها. ضباط البلدية مقامرون، المستشارون من رواد الحانات، والشرطة مجموعة من البلطجية. الحقيقة فرجال قانون سانت لويس ليسوا إلا خارجين عن القانون في نظر المدن الأخرى. يمكن أن تقع أي جريمة في اي مكان دون ملاحقة، طالما كان الكبار يستفادون منها، أو يدعمون مرتكبها.

وما أصاب رجال السايسة والقانون، أصاب التجار، حتى إن بعضهم كان يرفض التعامل بالمال الحلال!

شرق سانت لويس كان بهذه البشاعة وأكثر، مدينة مفتوحة بكل ما للكلمة من مساوئ. لكن أخيرًا وعى أهل المدينة الصالحون لمصالحهم، وترأسهم العمدة السابق جون بومان، وبدأت معركتهم ضد الفساد، معركة مريرة طاحنة، لكن في النهاية تخلصت المدينة تدريجيًّا من ناهبيها، وحُكم على مدير الخزانة الملتوي ثوس كانتي بإعادة ما نهبه من مال البلدية يوم 21 مايو 1884. في الليلة التي سبقت تحويل كانتي المال الذي نهبه إلى مستحقيه، تم اقتحام خزانة مبنى البلدية حيث كان الرجل يحتفظ بالنقود، عن طريق حفر نفق في الحائط الحجري، ودخول اللصوص إلى الخزانة من خلاله.

قبل عدة أشهر من السرقة، جاء مفجر الخزانات الشهير المعروف بتشارلي كلارك إلى سانت لويس، وكنت أعرفه منذ أعوام، وأعرف أنشطته الإجرامية في ميزوري، وقد طاردته واعتقلته أكثر من مرة من قبل.

جاءني كلارك في مكتبي، الذي كان في مبنى آلن وقتها، في شارع السوق، وقال:

- أنا تُبت عن الإجرام يا سيد فُرلونج. وجدت عملًا لدى شركة هاملتون براون للأحذية، براتب يمكنني من العناية بزوجتي وابني، وأريد أن أعرف إن كنت ستسمح لي بالعيش في سانت لويس، حيث لا يعرف ماضيَّ أحد.

قلت له إنني مسرور لتوبته، وإنني لن أخبر أحدًا عن ماضيه طالما التزم بالطريق القويم. فرح بهذا، وأكَّد لي توبته، وتطوع أن يزور مكتبي كل سبت ليطمئن قلبي تجاهه. قدمته بعدها إلى رئيس الكَتَبة عندي، السيد إدوارد داوسون، وطلبت منه أن يمر عليه إن لم أكن في مكتبي أيام السبت.

ظلَّ يزور المكتب أسبوعيًا لمدة ثلاثة أشهر، وقد غبت عن سانت لويس خلال هذه الفترة عدة أسابيع قضيتها في تحقيقات خارجها.

خلال غيابي، ضربت سانت لويس جائحة من سرقة الخزانات، فقد سُرقت ثلاثة في ليلة واحدة. سببت هذه

السرقات بلبلة للشرطة، وظلَّ رجال الرئيس هاريجان يعملون ليل نهار، وأرسل رجال الدورية في الأرجاء متخفين في زِيٍّ مدني، لكن ظلت نوبات اقتحام الخزانات مستمرة.

خلال غيابي عن سانت لويس، استطعت من وقتٍ لآخر الحصول على الجريدة المحلية، وعرفت من خلالها أخبار السرقات، ومن خلال أوصاف الجرائم، عرفت أن كلارك هو مَن قام بها، أو خطط لها.

كل الأماكن التي اقتُحِمت، اقتُحمت من أعلى، وأعرف أن هذه إحدى حيل كلارك. هو لا يكسر بابًا أو نافذة أبدًا للوصول إلى الخزائن. خططه تتمحور حول الوصول إلى مخارج الحريق، ودخول المبنى من السقف إلى حيث الخزينة، ووقتها يفتح بابًا أو نافذة خلفية ليؤمِّن لنفسه الهرب بسهولة.

عدت إلى سانت لويس في ليلية، وناقشت أمر السرقات مع السيد داوسون، وعرفت أن كلارك لم يأتِ إلى المكتب خلال غيابي. في الصباح أرسلت إلى مراقب العمل في شركة الأحذية التي يعمل فيها كلارك، وهو الشخص الوحيد سواي وداوسون الذي يعرف بشأن سجله الإجرامي.

قال لي مراقب العمل إن تشارلي كلارك قد ترك عمله قبل شهر دون تفسير. سحب حوافزه وراتبه للمرة الأخيرة ثم لم يظهر مرة أخرى. تأكدت وقتها أن الرجل قد عاد للإجرام.

انشغلت في مكتبي يومها، أتابع ما فاتني في غيابي، ولم أنصرف حتى الخامسة والنصف مساء.

في طريقي إلى سيارتي، مررت برجل أعرفه؛ بات لولر، أفضل محقق في المدينة، وقد كنا على علاقة صداقة قوية. حين اقتربت من لولر وجدته نائمًا في مقعده، وأخبرني بعدما أيقظته أنه والرجال لم يناموا منذ 36 ساعة من العمل المستمر في محاولة لمعرفة لص الخزائن، ثم أضاف:

- سأذهب لأنام في بيتي، ولا يهم ما سيفعله به الرئيس.

أخبرته أنني أعرف الجاني، وأنه ورفاقه لو قابلوني في شارع أوليف الساعة الخامسة والنصف في الصباح التالي سأساعدهم في العثور عليه.

كان تشارلي كلارك وقتها يعيش في شقة لها مدخل من حارة جانبية، وكنت أعرف زوجته، أو تلك التي يزعم أنها زوجته، والتي كانت زوجة نصاب آخر يدعى توم جوسلينج. اسمها آنبي، ولديها طفل في السابعة من عمره تقريبًا.

انتظرني لولر وشريكه حيث اتفقنا في صباح اليوم التالي حسب الميعاد. أخبرتهما كل شيء عن كلارك ثم انطلقنا نحو شقته.

طرقت على الباب، ففتحَتْ زوجته. دسست قدمي في فرجة الباب لأمنعها من غلقه في وجوهنا وقلت:

- أريد أن أرى تشارلي كلارك.

- هو ليس هنا يا سيد فُرلونج.

سمحت لنا بالدخول بعدما عرفتني، وأردفت:

- لا أعرف أين هو.

أخبرتني أن تشارلي عاد للسُكر وترك عمله منذ أسبوع، ولا تعرف أين هو ولا ماذا يفعل.

عرفت أنها لا تقول الحقيقية، لأن تشارلي ترك عمله منذ شهر، ولم يكن يشرب في حياته قط. بينما نتكلم، لاحظت صورة فوتوغرافية كبيرة لتشارلي كلارك، معلَّقة على الحائط. طلبت من مرافقي أن يأخذها، وطلبت منها أن ترتدي ملابس صالحة للخروج.

- ماذا ستفعلون يا سيد فُرلونج؟

- ستذهبين معنا إلى المخفر لأنك تكذبين.

بكت هي وابنها، ثم دخلت حجرة لترتدي ملابسها، فسمعت جلبة من لداخل، سألت وأنا أهرع إلى باب الحجرة:

- مَن هنا؟

قالت:

- اثنان من أصدقاء تشارلي، من هانيبال.

اقتحمت ورولر الحجرة ووجدنا رجلين في الفراش. اعتقلناهما وعرفنا أنهما نصابان مسلحان. وجدنا تحت الفراش صندوقًا يحوي متفجرات وزِي حماية وعَتَلة لفتح أبواب الخزائن، ومطرقة أدوات أخرى. يبدو أن الرجلين قد عادا متعبين ليلة أمس بعد إتمام جرائمهما، فناما وتركا كل شيء تحت الفراش.

قبل أن نغادر بحمولتنا من الأشخاص والأغراض، وصل ساعي البريد بخطاب للسيدة كلارك، ووجدت انه مُرسل من سبرينجفيلد. سلمته للسيدة كلارك لتفتحه وتتلوه علينا. الخطاب من زوجها، يخبرها أنه سيمكث في سبرينجفيلد يومين ويريد أن يطمئن عليها قبل أن يغادر.

نقلنا السجناء والصور إلى المخفر في مبنى المحاكم الأربع. أخذ رئيس المحققين السيد بورك واحدة من الصور وانطلق إلى سبرينج فيلد محاولًا العثور عليه، وقد نجح ووجده عند مكتب البريد يسأل عن خطاب من زوجته. أعاده إلى سانت لويس، لكن فشل الجميع هنا في انتزاع اعتراف منه، فقط قال لرئيس الشرطة السيد هاريجان إنه لا يعرف ما يفيدهم، وطلب حضوري.

في هذا الوقت، لم تكن العلاقة بيني وبين رئيس المحققين جيدة، لكنه أرسل في طلبي على مضض. قال لي كلارك إن الشرطة لن تستطيع الربط بينه وبين أي من جرائم السرقة الحالية، ولم يتحدث أكثر في وجود رئيس الشرطة.

لم يسمح لي هاريجان باستجواب كلارك على انفراد، فعدت إلى مكتبي.

لاحقًا في نفس اليوم، أحضر كلارك محاميًا، وأرسله لي ليخبرني أنني لو عبرت به النهر، سيخبرني بكل شيء عن سرقة خزانة البلدية. أرسلت محامي كلارك إلى محامي الادعاء السيد هولدر، فأرسل ضباطًا ليعبروا بكلارك النهر ويوثقوه هناك، ثم أخبرني بالتفاصيل.

حسب قصته التي أكدها لاحقًا مساعداه، أن ثوس كانتي هو من استأجر خدمات كلارك لسرقة الخزانة، ثم زعم أن هناك ستين ألف دولار مفقودة، ووه المبلغ الذي أنفقه شانتي على لعب القمار. طالبت المحكمة بالمال في اليوم التالي، لكن كانتي لم يكن معه مال لتغطية الناقص من الخزانة. طلب كلارك مبلغ عشرة آلاف دولار، توضع فوق الخزانة كأجر له.

قسمت العشرة آلاف دولار بين كلارك ومساعديه. قبيل ليلة الاقتحام، مرض كانتي فأرسل أخاه لتسهيل مهمة السرقة، فوقف في كامل زيه الشرطي خارج المكان يحرسه.

بعد الجريمة، أخذ المبلغ المتفق عليه في صندوقه إلى بيت شقيق كانتي، ووجدوا فيه ثلاثة آلاف دولار فقط، ورفض الأخير تسوية المبلغ.

حُوكم الأخوان كانتي بخمسة أعوام لكل منهما، ثم بعد الاستئناف خُفف الحكم إلى عامين.

أُطلق سراح كلارك بعدها، بعد رد المال الذي أخذه مقابل الجريمة، وترك المدينة إلى الغرب، وآخر ما سمعت عنه أنه أقام حانة في سان فرانسيسكو.

طالب رئيس المحققين بورك بالمكافأة لاعتقال لصوص الخزانة، لكنه لم يحصل على شيء؛ لا فضل له في اعتقال المجرمين على الإطلاق.

بعد أيام، قُتل عمدة شرق سانت لويس، ووجدنا جثته أمام مسكنه ومعه سرها الغامض. طلب مني ابنه أن أتولى أمر التحقيق في مقتل أبيه؛ كنت أعرفه منذ زمن، وأعرف أنه رجل مستقيم، وأجهل تمامًا سبب أن يقتله أحد. كان رجلًا ثريًّا، من أوائل من سكنوا المنطقة وتنبأوا بمستقبلها الصناعي اللامع، لكن يبدو أن منصبه قد قرَّبه من السياسيين الفاسدين، واستقامته اثارت حفيظتهم.

بعدما توليت قضيته، عرفت أن عددًا من أعدائه يجهزون أدلة غيابهم، والأغرب أن الشرطة لم تؤدِّ أي دور في البحث عن الجُناة.

بعد جهد كبير من رجالي ومني، وجدت شاهدين رأيا مُطلِق النار. كانا يمران من أمام مسكن العمدة، حين رأيا ومضة إطلاق نار، وسمعا صوت جورج و. الشرطي، وكان

هو من ارتكب الجريمة. ظهرت أدلة أخرى تدعم ما قال الشاهدان، وتضيف إلى قائمة المتهمين شرطيًا آخر يُدعى باتريك أونيل.

اعتقال الشرطيين أثار مشاعر المواطنين في المقاطعة كلها، رغم ذلك، بدأ أصدقاء الشرطيين في مضايقة الشاهدين بعدما أدلي بشهادتيهما في المحكمة، ونتج عن ذلك رحيلهما عن المقاطعة خوفًا، مما أدى إلى الإفراج عن الشرطيين لاحقًا لعدم وجود شهود أمام المحكمة النهاية يشهدان ضدهما.

نتج عن هذه الوقائع ابتهاج النصابين واللصوص في شرق سانت لويس، وبدأوا يتحررون أكثر في جرائمهم.

ظلت الهجمات تتزايد كل ليلة على شركات السكة الحديد، وصار تحديد هوية ومكان المجرم أمرًا جحيميًا، خاصة وأن الشرطة التي يدفع لها المواطنون لحماية مصالحهم تحمي اللصوص أنفسهم.

بعد جهود رجالي في القبض على المجرمين وملاحقتهم، بدأت الشرطة تنزع منا، ولم يقتربوا مني، لكنهم بدأوا يعتقلون رجالي بتهم مزيفة لتخويفهم، والحكم عليهم داخل المخفر لا أمام المحكمة.

تحت كل هذه الضغوط غير المنطقية، قررت إعادة هيكلة الشرطة، ولفعل هذا، كان عليَّ إغلاق الباب الذي يُفسد

الضباط؛ الرشاوي.

دعيت محامي الادعاء السيد هولدر وطلبت معاونته فيما أطمح لفعله. لم نكن على وفاق وقتها، لكنني كنت أعرف أنه رجل شريف وسيقوم بواجبه.

قلت له:

- هل تعرف أن المقامرين في الشرق يدفعون ألف دولار شهريًا للشرطة مقابل حمايتهم؟

- لم أكن أعرف أنهم يدفعون، لكننا نحتاج إلى دليل.

أكد لي السيد هولدر أنه سيلاحق المجرمين لو أحضرت له أدلة، فقلت له إنني سأجلب الأدلة وعلى نفقتي الخاصة.

طلبت منه ومن الشريف الذي وافق على مساعدتي أن يبقيا الأمر سرًا، حتى أنتهي من خطتي. عدت إلى سانت لويس، وأرسلت رجالي ليجمعوا الأدلة، التي حملتها إلى هولدر واستخرجت أوامر الاعتقال المطلوبة.

أغرنا بالتعاون مع الصالحين من الشرطة، وما تبقى من المحققين لدي على المخفر وأطلقنا سراح زملائنا. أعرف أنني لن أستطيع الهجوم على ثلاثين مؤسسة للقمار في نفس الوقت، فقررت محاصرة أكبر أربعة؛ التي تضخ أموال الرشاوي إلى الشرطة.

أرسلنا الرجال يحبسون المقامرين في بيوتهم كي لا يهربوا

أو يهرِّبوا أموالهم والأدلة على جرائمهم، ثم استأجرت حافلة ركبت فيها مع الشريف وثمانية عشر من رجالي، واشتريت أدوات صيد كي نبدو كأننا في رحلة، وحين وصلنا قسمنا أنفسنا إلى أربعة فِرَق، كل فرقة داهمت واحدة من صالات القمار، وجمعنا ما فيها من أدلة. لم نقبض على العاملين ولا اللاعبين، لكنهم فزعوا لمرآنا ففروا عبر النوافذ إلى الحارات الجانبية.

هكذا كررنا الأمر مع بقية الصالات، واعتقلنا مؤسسيها، وأحرقنا كل أدوات القمار في ميدان عام.

كل المعتقلين أُدينوا، وبعضهم دفع كفالة أكثر من اثنين وعشرين ألف دولار.

لاقت الغارات صدى ممتازًا في نفوس أهل سانت لويس، وكان هي الغارات الأكبر التي قمت بها في حياتي. تلقينا مديحًا من الشرفاء، وتحمس الجميع لانتخاب مَن يستحق تلك المقاعد الهامة في البلدة.

تولى العمودية الكولونيل ستيفنز لمدة ست فترات، لو أن ذاكرتي أسعفتني، وأصلح الكثير في شرق سانت لويس، لكن طريقه ورجاله الشرفاء لم يكن سهلًا، فتعرضوا للتحرشات والمضايقات من فلول المقامرين والفاسدين، لكنه لم يخضع لهم أبدًا، واستكمل المسيرة التي أصلحت شرق سانت لويس وجعلتها المدينة التي نعرفها الآن.

السطو على قطار روهان

سقوط اللصوص بعد مطاردة أربعة أشهر.

وقعت جريمة السطو على قطار روهان باسيفيك السريع بالقرب من روهان، إنديانا، وكانت شركة روهان وقتها تابعة لشركة واباش. قامت الأولى بإلحاق عرباتها بقطار من قطارات الثانية التي تسير على خط دترويت، ميتشجن، وإنديانابوليس، إنديانا.

خرج القطار من دترويت في المساء، وكان المفترض أن يصل في صباح اليوم التالي. وقف القطار في روهان ليلًا، وركب فيه رجلان، وصرعا موظف القطار دسًّا في فمه منديلين قماشيين، ثم لفا وجهه بثالث، وأوثقاه، ثم قاداه إلى الخزينة في القطار، وأخذا منه مفتاحها وسطوا على المحتويات التي تتألف من مجوهرات ومتفرقات ثمينة وأربعة آلاف ومائة دولار، ثم ترجلوا من على متن القطار في مكان ما بين روهان وبيرو، إنديانا.

عندما وصل القطار بيرو، قرع رجال السكة الحديد باب القطار دون مجيب، فاقتحموه من باب عربة أخرى ووجدوا الموظف مستلقيًا على ظهره فاقدًا الوعي. وجدوا آثار مقاومة، وآثار طلقات نارية على حوائط العربة وسقفها. عاين الأطباء الموظف وأنقذوا حياته بعدما منع المنديلان الهواءَ من الدخول إلى رئتيه.

حكى ما حدث بالتفصيل، وزاد عما قلت أنهما أخذا مسدسه، أطلقا عليه طلقتين أو ثلاث لم تصبه أيها.

كنت وقتها رئيس المحققين في شركة واباش للسكة الحديد، وهي شركة من شركان جولد. أبلغوني بالجريمة عبر الهاتف، فذهبت إلى روهان في الصباح التالي، ولم أستطع أن أحصل على المزيد من المعلومات. قابلت موظف القطار بيرت لوماس وهو شاب في السادسة والعشرين، ذو مظهر حسن، وُلدَ وعاش في فيرمونت ولديه أخ اكبر كان يعمل في نفس الشركة حتى مماته. أمهما أرملة وكان يعيش معها حتى التحق بالعمل في الشركة فغادر فيرمونت. قابلت رؤساء لوماس وعرفت منهما عن حسن سمعته، لكني قلت لرئيسه إنني أشك في تورطه مع اللصوص، فقال:

- لماذا؟ لا تنسَ أن لوماس كان يفقد حياته عندما وجدناه في العربة في بيرو. لقد حاول اللص قتله وربما كان لينجوا لولا وجدناه في الوقت المناسب. لو أن له صلة بهم ما حاولا قتله.

أعرف السد بريز، رئيس لوماس، وأعرف رِقّة قلبه، وأحترم الموقف الذي اتخذه لمسانده موظفه. استجوبت كل العاملين في الشركة ولم يتحدث أحدُهم عن لوماس بسوء، لذا لم أبلغ السُّلطات أنني أشك فيه، قررت مراقبته، فوضعت اثنين من موظفيّ عند نهايتي خط رحلة القطار

الذي يعمل عليه الشاب، بحيث يراقبانه في الذهاب والعودة.

راقبه الرجال أربعة أشهر، لاحظ المحقق الذي يراقبه في ديترويت أنه يشرب الخمر وهو في المدينة ويرتاد الحانات. قال المحقق الذي يراقبه في إنديانابوليس إنه ينام في بيت الاستضافة ولا يخرج منه حتى موعد القطار التالي، لكني فسرت الأمر أنه يحتاج إلى النوم بعدما ثمل في ديترويت.

طلبت من محققي في ديترويت أن يُصادق لوماس، ويصادق أصدقاءه، وكذا فعل.

في هذا الوقت، كان هناك تحرٍّ خاص في ديترويت اسمه بات أونيل، أرمل وشقيقته أرملة تملك بيت استضافة، وهو البيت الذي يسكنه محققو لوماس.

لم يكن أونيل يعرفهما شخصيًا، لكه عرف من شقيقته أن لوماس يعمل في شركة سكة حديد، وأن محققي له علاقة بجريمة وقعت على متن أحد القطارت.

في ليلة، بينما محققي مع لوماس يتناولان البيرة في ديترويت، اقترب منهما رجل متوسط الحجم بسط اللباس، في عمر الأربعين تقريبًا. يبدو أنه يعرف لوماس، لأنه جلس إلى جواره على الفور وراح يتبادل معه الهمسات. نجح محققي في سماع أغلب ما قيل، وكان الغريب يحاول إقناع لوماس أن كل شيء سيكون على ما يرام، وسمع لوماس

يقول:

- لم أعامل جيدًا، لذا ظللت أشرف حتى وقت متأخر.

بعدما انتهى لقاؤهما، تحرَّى محققي أمر الغريب وعرف أن اسمه ديني دونر، حارس حانة شهيرة في ديترويت.

بينما الحوار السابق يدور، كان رجل يدعى جيم أونيل –لا علاقة له بصاحب بيت الاستضافة- يجلس إلى منضدة قريبة، وهو لص معروف. كان أونيل يعرف أن لوماس موظف قطار ويعيش في بيت ضيافة شقيقة بات أونيل. حين سمع جزءًا من الحوار استنتج أن لوماس ربما تورط في حادث السطو المذكور، فأخبر بات أونيل –التحري الخاص – عما دار بين الشابين.

في الليلة التالية تلقيت برقية بما حدث، وبشخصية الرجل الغريب، وعرفت من فوري أن ديني دونر –اللص الشهير- واحد من المتورطين في القضية. كنت أعرف دونر من قبل، وتسببت في اعتقاله مرة.

في اليوم التالي اصطحبت السيد برازي إلى إنديانوبوليس، ومعنا كل التقارير التي وردتني من محققي، وأخبرته أنني أتوقع تغييرًا في مسار الأحداث.

أقمنا في حجرتين مؤمنتين في بيت استضافة سبنسر، المواجه لمحطة إنديانابوليس. وصلنا هناك قبل وصول قطار لوماس بعدة ساعات. طلبت من محققي في محطة

إندنيانابوليس أن يجلب لي لوماس إلى حجرتي بمجرد أن يصل.

كان واحد من محققيّ قد عرض على لوماس عدة أشخاص من الكتبة فيهم في عدة مناسبات مختلفة، وفي كل مرة يفشل لوماس في التعرف على أي شخص، ويعجز عن وصف مهاجميه. لم أكن أتوقع أنه سيستطيع التعرف على الجناة، لكن الشركة طلبت مني أن أخبره أننا قد نحتاجه في أي وقت لنعرض عليه المشتبه فيهم، لذا لم يكن هناك مشكلة في المجيء إلى الفندق.

في هذا الصباح، أعددت حجرتي، فوضعت طاولة في المنتصف وعليها كل التقارير التي وصلتني. كان السيد بريز يشغل الحجرة المجاورة لي، والتي لها باب مشترك مع حجرتي، ورتبت أن أوارب الباب فيجلس خلفه ليسمع كل ما سيدور. كان يشك في جدوى كل ما أفعل، كونه يؤمن أن لوماس بريء.

طرق محققي الباب، ثم دخل مع لوماس. طلبت من لوماس أن يجلس، ومن المحقق أن يعود إلى الرواق ريثما أنتهي.

قلت للوماس:

- أريدك أن تنظر إلى التقارير على المنضدة، وهي التقارير التي وصلتني من محققيَّ اللذين راقباك طيلة الأربعة أشهر

الماضية، فيها تفاصيل ما فعلت خلال هذه الفترة، وكل من تعاملت معه. أستطيع أن أخبرك كم سيجارة دخنت، وكم كأسًا شربت، ومع مَن تحدثت وعن أي شيء. عرفت أن والدتك سيدة طيبة في فيرمونت، وأن لك معارف محترمين وأنك تربيت جيدًا. أعرف ما يقولون عنك وعن أخيك من محاسن، لكل هذا قررت أمنحك فرصة أن تقول لي كل الحقيقة، وإن وجدتك تكذب، سأحيلك إلى السُّلطات فورًا، لكن إن قلت لى الحقيقة ولا شيء سواها، سأبذل ما فى جهدي لتخفيف الحكم عنك إن كنت مدانًا. الآن أجب عن أسئلتي بدقة. كم تلقيت من مال مقابل السطو؟

قال بلا تردد:

- سيد فُرلونج، لم أتلقَّ سوى عشرة دولارات.

من قبل أن ألقي سؤالي، رأيت الدموع في عيني لوماس، والآن بدأ ينتحب.

- انتظر يا لوماس حتى أنادي السيد بريز، صديقك.

سمع السيد بريز كل كلمة، فذهبت إلى الباب وطلبت منه الدخول. لاحظت الدموع في عينيه هو الآخر. طلبت منه أن يكتب كل ما سيتفوه به لوماس، ثم سألت الشاب:

- من اللذان سَرَقا العربة معك؟

- ديني دونر وصديق له يدعى آل. لا أعرف اسمه

بالكامل.

حكى لوماس أنه قابل دونر في حانة في ديترويت، وكان الأخير يعرف أنه يعمل في القطار، وبعدما شربا حتى الثمالة، سأله دونر عن الميعاد الذي يحمل القطار فيه أغرضًا ذات قيمة، وقال دونر إنه سيركب القطار مع رفيق له وسيوثقان لوماس على ألا يلحقا به ضررًا، ويسرقا الخزينة ثم يطلقا رصاصات تمويه فيظهر الأمر كأنه مجنٍ عليه لا مشترك معهما.

وافق على المشاركة، وأخبرهم بموعد تكون فيه الخزينة مليئة، ثم تمت الجريمة. بعدما عاد لوماس إلى ديترويت، أرسل إليه دونر عشرة دولارات مع الوعد بالمزيد، لكنه لم يتلقَّ منه شيئًا آخر. ندم على ما فعل وبدا ينغمس في الشرب، وقال إنهم حاولا قتله يوم الجريمة بالفعل عن طريق المنديل الذي دساه في فمه.

ذُهل السيد بريز وموظفو الشركة من اعتراف لوماس. تركت الأخير مع محققي، وذهبت إلى ديترويت فاعتقلت المجرمين المذكورين، وعرفت أن آل هو أل بيري من بوسطن، مجرم ولص متمرس.

حُكم على آل ودونر بالسجن ستة أعوام في إصلاحية ميتشجن، إنديانا. بعد اعتراف لوماس، قررت المحكمة أن تعتبره شاهدًا، واعتبرت قلة معرفته بالإجرام سببًا

لتأثره بخطة المجرمين الآخرين. طالب بات أونيل بمكافأة لمشاركته في الإدلاء بمعلومات أدت إلى اعتقال المجرمين، لكنه لم يحصل على شيء، ولم تكن مطالبته سوى صيد في الماء العكر ومحاولة للاستفادة المادية.

اعتقال لورنس بوينير

عامل تحميل القطارات يحاول إلقاء مُعتقله عن متن القطار.

لورنس بوينير شاب في الثامنة والعشرين، يعمل في شركة قطارات تيكساس وباسيفيك في نيوأورلينز منذ عامين.

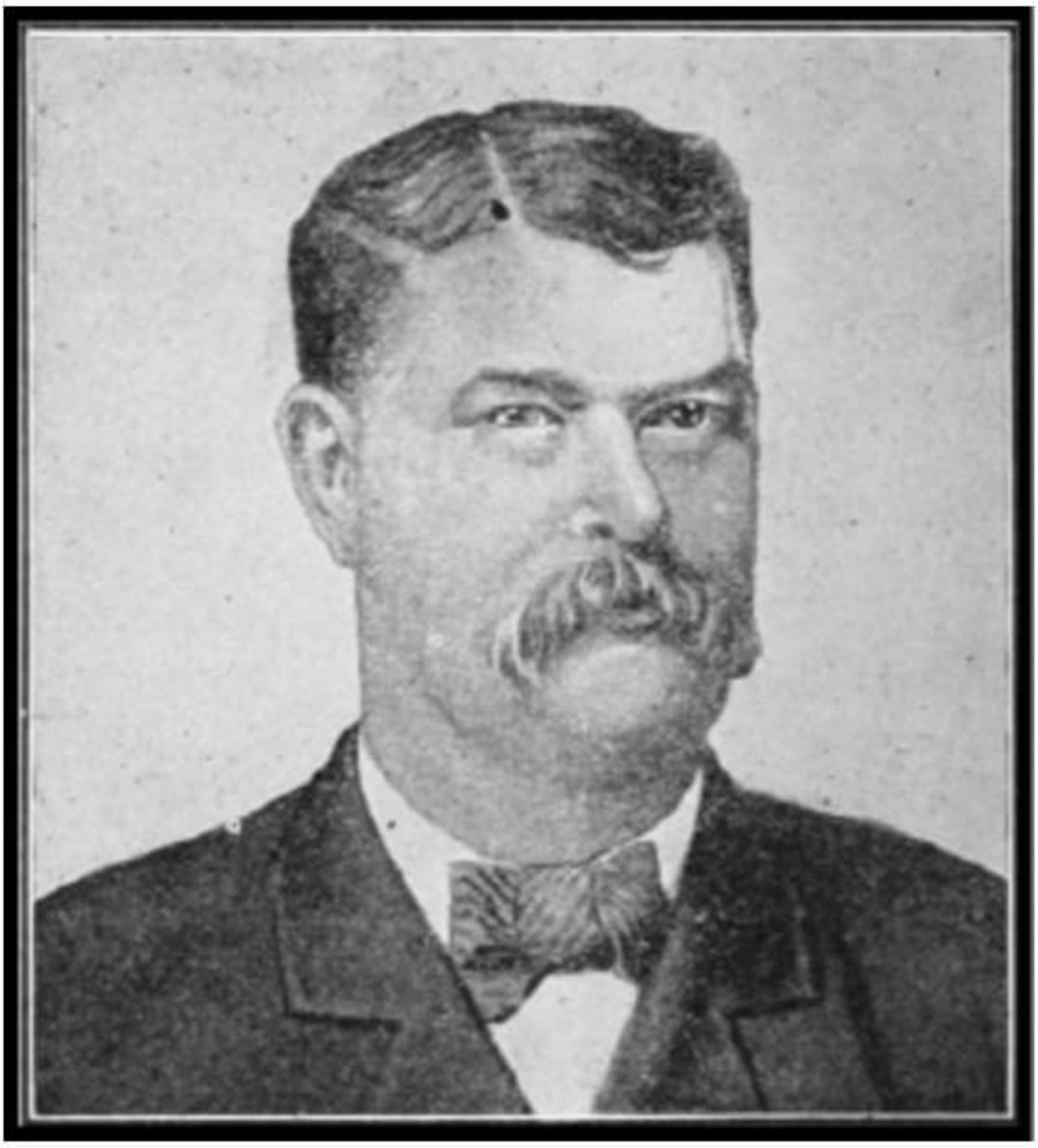

لورانس بوينير

تحول إلى الشر وتآمر مع مالك ورشة انتقاء قطن في نيوأورلينز للتلاعب بأصحاب العمل. هناك العديد من ورش انتقاء القطن في المدينة، ويتمحور عملها في شراء القطن

الهالك المحترق أو الغارق في الماء، وانتقاء ما ينفع منه لبيعه بسعر جيد. باختصار، هم يمارسون عملًا أقرب لعمل جامعي الخردة.

يبيع بوينر حمولات قطن كبيرة إلى أؤلئك المنتقين بسعر أقل من سعر السوق. لاحقًا وجدت عربات التحميل هذه لكنني عجزت عن معرفة مكان القطن، وجاء وقت العثور على بوينير الذي سرقها من مُلاكها وباعها لصالحه.

عرفت أنه ترك العمل في الشرطة بعد اختفاء القطن بثلاثة أسابيع. تتبعته حتى نيويورك حيث يقطن والداه، وحصلت على صورة منهما توضح ملامحه. هو ضخم قوي ينتعل حذائين طويلين. كان رجل حسن المظهر وعامل تحميل ذا خبرة.

تتبعت مكانه عبر المدن والولايات حتى وجدته يعمل في شركة في كولومبيا، فاستخرجت أوراقَ اعتقاله، ثم حجزت مكانين لي ولسجيني على متن القطار المتجه إلى سان فرانسيسكو.

لم يكن هناك أحدٌ في العربة التي ركبناها، ولم يكن أحدٌ يعرف أنه سجين؛ طلبَ مني ألا أصفِّده وأنه لن يفر مني، وكنت أنا عاجزًا عن استخدام الأصفاد بحوزتي لأن رسغيه ضخمان للغاية.

بعدما غادرنا آستوريا، وقطعنا عدة أميال، خرجنا نتمشى

في الممر قليلًا حتى وصلنا قرب نهاية القطار، ولم يكن هناك ركاب في هذا المكان. فجأة قبض بوينير على قميصي وبنطالي من الخلف، وحاول قذفي من الشرفة الخلفية للقطار إلى البحر المجاور.

أمسكت برقبته ومن تحت إبطه كي لا يدفعني، وصرخت طالبًا النجدة. عامل في القطار سمعني، فأطلق صافرة الإنذار وانطلق الضباط من مقدمة القطار نحونا. حين سمع خطواتهم أطلق سراحي وحاول أن يبدو الأمر كأنه كان يمزح معي.

شرحت ما حدث لربان القطار، فأوثقه إلى الحديد في الشرفة حتى وصلنا سان فرانسيسكو فأودعته السجن ثلاثة أيام، واقترضت أصفاد كبير من رئيس الشرطة هناك، ثم نقلته بسلام إلى نيو أورلينز.

اعترف أمام المحكمة وحُكم عليه بأربعة أعوام. بعدها فقدت اثره لعشر سنوات، حتى قابلته يعمل على متن عربة نقل عام كهربية. تعرفني على الفور لكنه لم يحدّثني، وعرفت بعدها أنه غيَّر اسمه إلى جوني قبل التحاقه للعمل في العربة. ترك بعدها سانت لويس ولم أعرف عنه شيئًا بعدها.

اعتقال مزورّي التذاكر

اعتقال لويس رايس وتوم لاندس بعد مطاردة طويلة

خلال بداية الثمانينيات، اكتشفت عددٌ من شركات السكة الحديد أن تذاكرها قد زوِّرت، وخسرت الشركات آلاف الدولارات جراء ذلك. سماسرة التذاكر الذين ينتشعون في المدن الكبرى هم من سوَّقوا لها واستفادوا منها.

التذاكر كانت مشابهة جدًّا للأصلية، وتحوي الأرقام والإمضاءات التي تجعلها تبدو سليمة.

اكتشف التزوير واحدٌ من مساعدي س. ج. وارنر، كبير مدققي حسابات شركة ميزوري باسيفيك في سانت لويس، حين لاحظ أن الأرقام على التذاكر غير منتظمة.

أوكل لي السيد وارنر بالقضية، وبعد جهد لن يفيد القارئ ذِكرُه، عرفت بمعاونه مساعديَّ أن رايس ولاندز مزورا تذاكر، لهما مكاتب توزيع في في عدة مدن في الغرب الأوسط، حيث يزورا التذاكر بأعداد كبيرة في مطبعة خاصة. كان رايس يعمل في قطع التذاكر في عدد من خطوط السكة الحديد، ويعرف شكلها وتفاصيلها.

لاندز كان محاميًا منحرفًا ومتزوجًا من سيدة من عائلة محترمة في إنديانا، أما رايس فكان أعزب، لكن له خطيبة من عائلة مرموقة مثل عائلته، وكان له مستقبل رائع كرجل

أعمال لولا انتصر الشر داخله.

أرسلت تلك المعلومات إلى شركة ميزوري باسيفيك، فطلبوا مني اعتقال رايس ولاندز. لم أركز في اعتقال لاندز، كون برايس هو رأس الجريمة، فقررت وضع لاندز تحت المراقبة، ثم ذهبت أبحث عن رايس، فتبعته من كانساس إلى دينفر إلى سولت ليك... وصولًا إلى أوريجون حيث فقدت أثرَه. بعدما أمضيت عدة أيام في البحث دون نتيجة، عدت إلى سانت لويس كي أرى عن كثب خطيبة رايس المقيمة مع عائلتها.

بعد مراقبة السيدة الفاضلة، عرفت مكان رايس، فعدت إلى الساحل الباسفيكي على متن سفينة. حين وصلت عرفت أن رايس غادر قبل وصولي بأيام، وترك رسالة لأصدقائه أنه سيعود إلى أوريجون.

علمت أنه كان يُنقب عن الذهب في الجبال ولم يفلح، وفقد تمويله، فقرر العودة إلى أوريجون بحثًا عن عمل.

لحقت به في بورتلاند، أوريجون، وعرفت مكانه حيث كان يعمل عاملًا باليومية في مصنع. حين وجدته كان يرتدي زِيًا قذرًا، وفي حاجة إلى الاستحمام والحلاقة، ولم يعد يشبه صورته القديمة في شيء.

عدت به إلى سانت لويس، وفي الطريق اعترف لي بعلاقته ولاندز بتزوير التذاكر، وأخبرني عن مكان المطبعة

والموزعين في المدن.

بوصولي سانت لويس، أودَعْت رايس منزلًا مؤمنًا في ضواحي المدينة، وتركته تحت مراقبة مساعدي، وفعلت ذلك كي لا يعرف المزورون والموزعون ذوو الصلة بالجريمة محل التحقيق، أن رايس مُعتقل، ويكملا في ممارسة جرائمهما بشكل عادي. كذلك كنت أرغب في استدراج لاندز وهو ما لم يكن ليحدث لولا خطتي هذه.

أريد القول أيضًا إنني لن أتمكن من إلقاء القبض على لاندز دون أدلة قاطعة على تورطه، وكان هذا هو حُكم القاضي الذي هو صديق لعائلة لاندز بالمصادفة.

هذا هو المجرم الوحيد الذي أطلقت سراحه بناء على حكم كهذا. على أي حال، توفي لاندز جراء تدهور صحته بعد الحكم وانتهى دوره في الجريمة عند هذا الحد.

وقت مثول رايس أمام المحكمة، حكم القاضي ببطلان الدعوى لنفس الأسباب السابق ذكرها مع لاندز، وتم الإفراج عنه. تعتبر قوانين الولايات التزوير جناية، ويُطبق عليها الأحكام المُشددة للجنايات، لذا كان القضاة يتحرون الدقة فيما يخصها ويخص محاكمة مرتكبيها.

تتبعنا مكاتب التوزيع وأغلقناها، وكانت مهمة شاقة، ورغم أن المجرمين لما يُعاقبا، ولم تعوَّض شركات السكة الحديد عن خسارتها، لكن تلك القضية كانت من أكثر

القضايا إرهاقًا بالنسبة لي، حيث تنقلت بين الولايات مسافة تقارب ثمانية عشر ألف ميل، لكن القانون هو القانون، مهما كانت أحكامه.

بعد الإفراج عن رايس، سافر إلى أيوا وعمل في التأمينات، وتزوج السيدة التي خطبها. آخر ما سمعت عنه أنه صار مشرف عملاء تأمينات في شركة، ويعول عائلته ويشارك المجتمع بشرف.

الحُكم على جون كولينز

العثور على الأدلة التي قادت إلى القبض على قاتل أبيه.

لم تُرتكب جريمة في الغرب خلال السنوات السابقة أكثر غموضًا من مقتل ج. س. كولينز، والتي وقعت في كانساس في ربيع 1898. قُتل السيد كولينز أثناء نومه جوار زوجته في بيته. كان سلاح الجريمة مسدس، أصابت رصاصة منه كتف الزوجة ولم تقتلها.

عمل القتيل في مجال التأمينات والعقارات في العاصمة كانساس، حيث عاش لسنوات طويلة كمواطن حسن السمعة.

بلغ وقت مقتله خمس وخمسين عامًا، ولديه ابنة وابن؛ جون يدرس في جامعة الولاية في لورنس قبل وفاة والده بعامين أو ثلاث، وكان يقيم في سكن الجامعة ويزور منزل العائلة في أيام الأحد و الإجازات.

استيقظ منزل آل كولينز في صباح يوم على صوت إطلاق نار، ينبعث من مهجع السيد والسيدة كولينز في الطابق الأرضي.

لم يكن في المنزل يومها سوى الآنسة كولينز والسيد كولينز الصغير ويشغلان غرفتين في الطابق العلوي، وخادمة صغيرة السن. الوقت كان في بداية الصيف،

والستائر مسدلة والنافذ مغلقة.

استيقظ جون على صوت الطلقات، فارتدى ملابسه سريعًا وأيقظ أقرب الجيران لهم. بعد وصول الشرطة، عرفوا أن الأبواب والنوافذ لم تُقتحَم، إلا نافذة خلفية في الطابق الثاني قد قُطع السلك الذي يغلقها. هذه النافذة كانت في مستوى أعلى بطابق واحد من مبنى المنزل الرئيسي في المقدمة. بعدما أنهت السُّلطات تحقيقها، توصلوا إلى أن القاتل دخل المنزل باستخدم مفتاح، ثم بعدما قتل السيد كولينز، هرع إلى الطابق الثاني فشق الفجوة في النافذة وقفز منها مسافة عشرة أو اثنتي عشرة قدمًا إلى سقف المبنى الأمامي، ثم هرب.

أرّقت الجريمة المجتمع، كون السيد كولينز عضوًا بارزًا فيه، وطالبَ الناس بإلقاء القبض على الجاني.

اتصل بي السادة في سانت لويس وطلبوا مني القدوم لتحري الجريمة، فوصلت إلى هناك في اليوم الثالث لوقوع الجريمة. فحصت المكان واستجوبت الأرملة التي هي زوجة السيد كولينز الثانية، وابنة زوجها وابنه.

السيدة كولينز سمراء، طويلة في عمر السادسة والثلاثين، بارعة الجمال، الابنة الآنسة كولينز طويل كذلك، متعلمة، ذكية. جون كولينز في الحادية والعشرين، متوسط الطول، حسن البنية، أبيض اللون، وسيم.

أمضيت أربعة أيام في تحرياتي، ورسا في قلبي أن الجاني واحد من أفراد الأسرة، وأن المنزل لم يقتحمه غريب. قُتل السيد كولينز بمسدسه الذي كان يضعه في جرابه في رف علوي في خزانة ملابسه في حجرة النوم. الخزانة ضخمة، تمتد من الجدار إلى الجدار. السقف عالٍ، وكذا رف الخزانة بالضرورة، فلا يمكن لشخص في طول عادي أن يصل إلى المسدس دون مساعدة سُلَّم، ولا يمكن لشخص طويل أن يصله إلا وقوفًا فوق منضدة.

لم يستخدم السيد كولينز مسدسه منذ شهور قبل وفاته، وكان المسدس مفككًا بعد تنظيفه آخر مرة، لذا وجب على القاتل تركيبه وحشوه بالرصاص قبل استخدامه، لذا، لا يمكن حدوث كل هذا بفعل فاعل من خارج المنزل.

عرفت كذلك أن الابن جون كولينز ترك حاجياته في سكن الجامعة في الليلة السابقة للجريمة، وزعم أنه نام مبكرًا ليلتها ولم يستيقظ حتى سمع صوت الطلقات. علمت كذلك أن الفتى يحب فتاة ثرية من لورنس، وقد أعلمته أن أمها اشترت كوخًا صيفيًا في لونج برانش لقضاء شهور الصيف، واستنتجت أن الشاب قد خشي أن يفقد حبيبته إن قابلت شخصًا آخر أثناء إجازتها، فقرر أن يرتب الأمر بحيث يقضي الصيف في لونج برانش جوارها فيحيمها من مغازلة المغازلين.

كان السيد كولينز الكبير أكثر ثراء من قبل، لكنه تعثر

ماديًا ولم يكد يملك سوى منزله الفاخر، لكنه كان قد أمّن على حياته بمبلغ ثلاثين ألف دولار، وعشرة أخرى على حياةِ كلٍّ من زوجته وابنيه.

أرسلت تلك المعلومات إلى المحقق ج. س. مانينج، وطلبت منه أن يجمع لي كل المعلومات عن الشاب ورفاقه. عرف مانينج أن السيد كولينز الصغير كان ينفع مبالغًا طائلة في شراء الزهور وتأجير السيارات والترفيه، ولا يعرف مِن أين له بالمال سوى مصروفه الشهري الذي بلغ خمس وعشرين دولار. علمنا كذلك أن لجون علاقة بسائقي سيارات أجرة ملونين، فأرسلت المحقق هاربو، الذي يعمل معي، وكان يقود سيارات أجرة في كانساس قبلها، ويعرف السائقين الملونين المذكورين، لكن هؤلاء لم يعرفوا أنه صار محققًا في خدمة التحري السرية.

تواصل هاربو مع السائقين، وعرف أن الفتى قد عرضَ عليهما قتل أبيه مقابل مبلغ ضخم من المال، لكنهما لم ينتويا فعل ذلك، لكنهما طلبا مبلغًا مقدَّمًا، علما منهما أنهما إن لم ينفِّذا ما طلبه منهما، فلن يجرؤ على فضح نفسه.

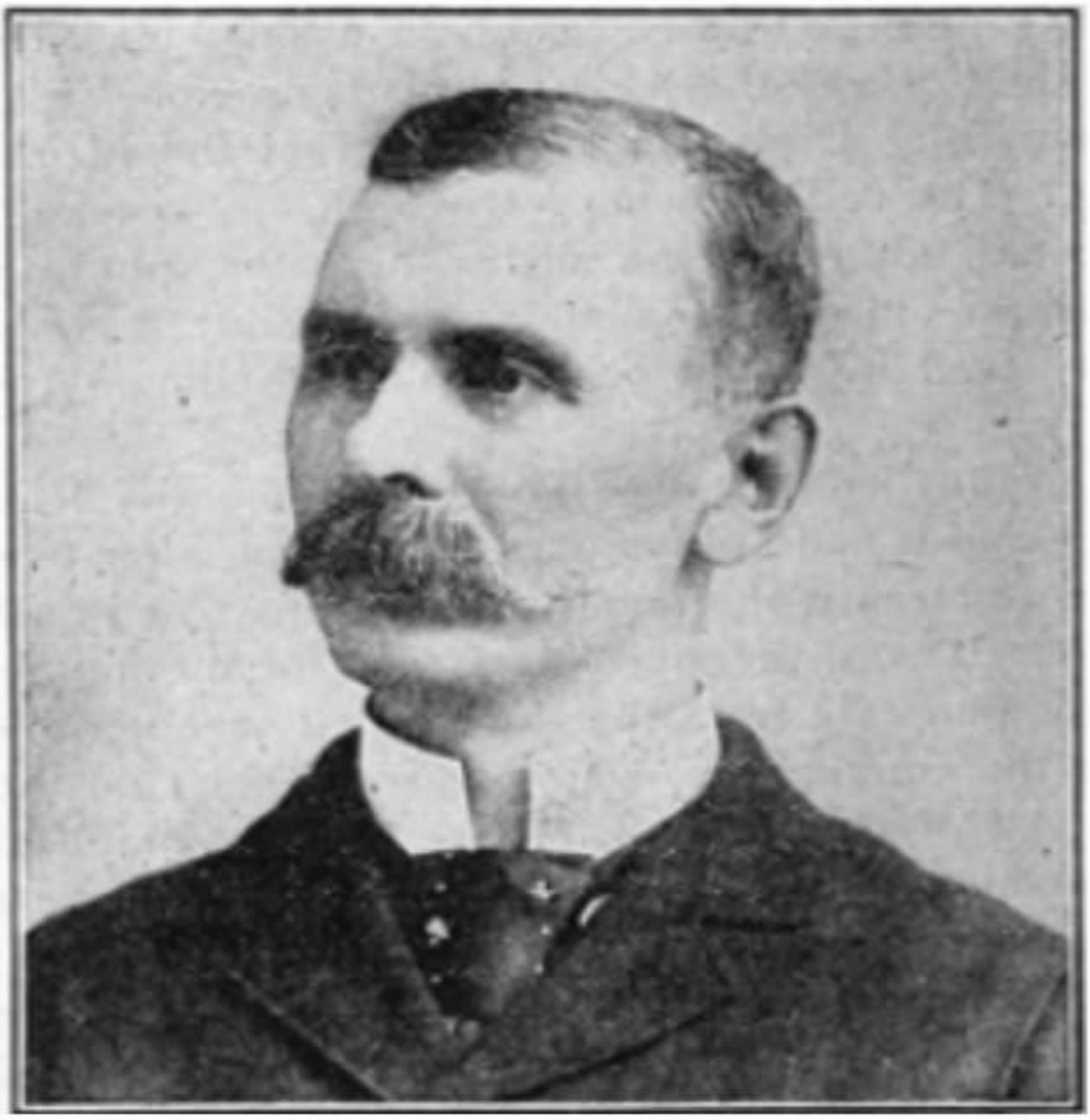

المحقق مانينج

مرَّ الوقت الذي اتفق معهما عليه، ولم يُقتَل السيد كولينز، فثار جون وتشاجر مع السائقين، فابتزاه بالمزيد من المال، فدفع لهما مائة دولار بعدما اقترض من أصدقائه، وأعطاهما ساعة ذهبية أهداها له أبوه في عيد مولده الحادي والعشرين، ثم حدَّد موعدًا آخر لقتل الأب، لكنّ السائقين أخلَّا بوعدهما. عاد إليهما لائمًا مرة أخرى، فقالا له إن كان يريد قتل أبيه، فليفعلها بنفسه، وأنهما لن يقتلا أحدًا.

يئِس جون وعاد إلى بيته فقتل أباه بمسدسه.

أبلغت الشرطة بالنتائج واستخرجت أمر الاعتقال. سرعان

ما سُجنَ الشاب دون كفالة، وقُدِّم إلى المحاكمة في موعده، وكانت محاكمة مشحونة بالعواطف تأثرًا بمقتل السيد كولينز دمث الأخلاق.

ازدحمت قاعة المحكمة، وحضر العديد من المحامين المشهورين ليشهدوا المباراة القانونية بين محامي الطرفين الحاذقين.

فعل محامي الادعاء جيتمور ما بوسعه، وخاض واحدة من أهم معاركه ليعرض الأدلة أمام هيئة المحلفين. خلال فترة المحاكمة، ظَّن الكثير أن مَن أوكلني بالمهمة شركة التأمين ليحاولوا التملص من دفع مبلغ الثلاثين ألف دولار عن طريق إثبات أن القاتل هو الابن، وهو ظنٌّ غير صحيح.

استمرت المحاكمة نحو أسبوع، حاول خلالها محاميو كولينز الصغير تبرئته، لكن ثبتت جريمته، وأرسل إلى السجن في انتظار أن يحدد الحاكم موعد إعدامه كما هي العادة في كانساس، أو يامر بتخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة.

أريد ذِكر أن السائقين الملونين قد وقفوا خلف منصة الشهادة ضد جون كولينز وأبرزا الساعة التي أعطاهما إياها، مما أثبت بما لا يدع مجالًا للشك تورط الشاب في التخطيط للجريمة كما زعما، ونال المجرم جزاءه العادل.

صراع مع العصابات

جيمس الغاضب وشركة ميزوري باسفيك

بمساعدة السيد جوزيف مانينج، وثلاثة من محققي في شركة سكك حديد ميزوري باسيفك، استطعت منع السطو على قطار في ليلة 29 نوفمر 1898، وتم لنا هذا بعد معركة سريعة بالمسدسات بيننا وبين اللصوص، نتج عنها إصابة أحد رجالنا.

قبل محاولة السطو بأيام، استدعاني إلى مكتبه السيد هوراس كلارك، مشرف عام شركة ميزوري باسفيك، وأخبرني أنه عرف من موظف سابق في الشرطة، أن هناك خطة يرسمها ستة من رجال السكة الحديد وهو منهم، لإيقاف قطار من قطارات الشرطة وسرقته في منطقة قُرب سيداليا، ميزوري. لم يحددوا الموعد بالضبط، لكن الرجل الذي أرشده أكَّد له أنه سيبلغه فور تحديد المكان بالضبط والموعد.

سمعت ما قال السيد كلارك، ثم لفت نظره إلى أنني قليل ما أثق بمعلومات يمدنا بها واحد من الخططين لجريمة قبل وقوعها. قال السيد كلارك إنه يثق بهذا الرجل والذي كان مهندسًا سابقًا يُدعى آدم، وقد فقد ذراعه أثناء خدمته، ومنذ هذا الوقت وهو يعمل في وظائف شريفة.

- فُرلونج.. سأبلغك فور معرفتي بموعد السطو، أريدك

أن تمنع هذه الجريمة وتعتقل المجرمين.

في صباح الثالث والعشرين من نوفمبر، تلقيت رسالة يخبرني فيها السيد كلارك أن قطار الركاب من ليكسنجتون سيُهجم هذه الليلة في نقطة تبعد مسافة تسعة أميال عن سيداليا.

وضع السيد كلارك المحقق كاي تحت إمرتي، وبدأت تنسيق المسافات والقطارات لأقابل من سيأتون معي، ولأؤقت وصولنا بما يتناسب مع موعد السطو.

طلبت من سائق القطار الذي سيُهاجم أن يحرص على هدوء وسلامة ركابه بعدما يهاجم المجرمون القطار، وطمأنته إلى أننا سنكون معهم وسننسق مع العاملين في القطار ليكونوا جميعًا في أمان تام إن بدأ إطلاق النار.

حين وصلنا المحطة الأولى شمال المنحنى الذي سيتوقف عنده القطار، اتخذ السيد مانينج مكانه في مقدمة القطار خلف المحرك وكان مسلحًا بمسدس. المحقق فرانك بارنيت مكث في المؤخرة مسلحًا ببندقية ونشستر.

أما أنا والسيد كاي كنا على جانبي المحرك، نرتدي قبعات عمال القطار، بحيث ينخدع فينا أيٌّ مَن يرانا من الخارج، أما الموظفون الحقيقيون فكانوا يباشرون أعمالهم من مخابئهم الآمنة.

حين وصلنا المنحنى، رأيت الإشارة التي سيتوقف إثرها

القطار، وهي مصباح أبيض ملفوف عليه منديل أحمر، تعطي منظر كشاف الخطر المستخدم لتحذير القطارات.

طلبت من مهندس القطار أن يبطئ السرعة حتى يتوقف تمامًا بأمان قبل الإشارة. أغلق المحرك، لكنه لم يفعِّل المكابح، فظل القطار في اندفاعه. أهبت به أن يوقف القطار، لكنه بدا لي مصممًا على تجاوز الإشارة خوفًا مما سيحدث لو توقف.

جذبت عصا المكابح بنفسي، فتوقفت العجلات وانزلقت على القضبان حتى كدت أدهس حامل الإشارة، الذي قفز إلى يسار المحرك حيث أقف، عند آخر لحظة لينقذ نفسه. حين مررنا به كانت سرعتنا على الأقل خمسة عشر ميلًا في الساعة. فتح النار علينا، فانتقلت إلى الجهة الأخرى خلف المحرك في لحظة، ولم أتمكن إلا من إطلاق رصاصة واحدة نحوه، ورأيته يسقط، لكن باقي العصابة ظلت تطلق النار من الجهة اليمنى، تحاول إصابة موظفي القطار، فأصيب مانينج بطلقتين أخطآ مكان رأسه ببضع بوصات.

لم يتوقف القطار تمامًا إلا عندما عبرنا النقطة التي حددتها العصابة بحوالي ألف وخمسمائة قدم. أكدت على رفاقي أن يطلقوا الرصاص على أي فرد من العصابة يطلق النار نحو القطار، وأكدت على موظف القطار أن يحافظ على سلامة الركاب ويأمركم بالركوع على الأرض ولا يحاول أحد المغادرة.

بعدما توقف القطار، هرعت ومانينج وكاي إلى حيث مكان المصاب من العصابة، لكن محرك القطار بدأ ينفث الدخان ويحرك القطار ببطء حتى كاد يدهمنا.

في محطة سابقة، ركب عشرون شخصًا من مؤديي العروض المسرحية، مع كل منهم بندقية من نوع مختلف، وبدأوا يطلقون النار على العصابة عبر نوافذ القطار.

حين وصلنا النقطة التي سقط فيها اللص، وجدنا أنه قد اختفى. كان الثلج قد انهار في الليلة السابقة للجريمة، فرأينا آثار قدمي الرجل واضحة وكذا خيط دماء، كلها تتجه إلى الطريق المؤدي إلى سيداليا. قبل أن نتتبع خُطى المصاب، رأينا رجلًا يحاول عبور سور السلك الشائك، لكن ملابسه علقت به لحظات قبل أن يتحرر وينطلق إلى حقل كبير عند الشرق.

نظرًا لهروب الرجلين كلٌّ في اتجاه، تركنا أمر مطاردة الأول، وشرعنا نلحق بالثاني خلف السور أنا ومانينج. المطاردة كانت رهيبة، واستمرت مسافة مائة وخمسين ياردة وسط المزروعات والثلوج والظلام، حتى سقط اللص، وجردناه من سلاحه فلاحظنا أن يديه مغطتان بالدماء. انبطح على الأرض يتألم وقد فطنا إلى إصابته بعده طلقات عشوائية من الفرقة المسرحية على متن القطار، والتي راحت تمطر الجميع؛ الأصدقاء والأعداء، على حد سواء.

حتى مدير القطار الذي كان يعرف بأمر مطاردتنا أنا ومانينج، فتح النار من بندقيته حتى إن رصاصته أصابت مقبض بندقية مانينج ففجرته وكاد الرجل يفقد كفه وذراعه جراء الصدمة. لحقنا المحقق بارنيت، وقيَّد اللص وكشف وجهه، وعرفنا أنه ويست، أحد المتآمرين، وعامل من عمال القطارات في شركة ميزوري باسيفيك. للأسف كان رجلًا تقيًا من قبل يحضر الصلات واجتماعات مدارس الأحد، حتى أفسده القمار.

حملنا ويست إلى القطار وقد فقدَ القدرة على السير، واكتشفنا أن إصاباته الأفدح سبَّبتها جروحٌ غادرة في أوعيته الدموية من عبوره السلك الشائك.

انطلقنا بالقطار إلى سيداليا، وقد قررنا البحث عن المصاب الآخر لاحقًا؛ لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا. كنت قد عرفت من ويست أن هناك هاربًا آخر يدعى إلى ستبلفيلد، فأرسلت المحقق جون جاكسن ليراقب منزل شقيق اللص على أمل أن يلجأ إليه فنعتقله.

عدت مع فرانك بارنيت إلى مكان السطو، وتتبعنا آثار الدماء حتى الطريق الرئيسي المؤدي إلى سيداليا، واستجوبنا أهل منزل على الطريق من الزنوج، فأخبرونا أن رجلًا نحيلًا قد جاء إلى منزلهم بعد سماعهم صوت إطلاق النار بقليل، وطلب منهم تأجير حصانهم له بعشرة دولارات كي يركب إلى سيداليا لأنه مصاب، فاعتذروا له

عن المساعدة. تركهم مُخلفًا أثرًا من دماء تنزف من ذراعه اليمنى، وتيقنا وقتها أننا سنجده في سيداليا، وفعلًا وجدناه واعتقلناه بالقرب من منزله. طمأنا الأطباء على حالة ذراعه التي اخترقت عظامها رصاصةٌ، وبعدما شفي الجرح، لم يستطع الرجل استخدامها مرة أخرى.

ظلَّ المجرمون في السجن حتى موعد المحاكمة. أخبرني آدمز، الذي أفشى الخطة، أنه اصطنع التعب كي لا يشاركهم في هذا اليوم، هو فقط أوصلهم إلى نقطة السطو وعاد بعربته إلى سيداليا.

حُكم على المجرمين بعشرة أعوام لكل منهم، وقضوها بالكامل في الإصلاحية. وعاد آدمز للعمل في شركة السكة الحديد مكافأة له على تعاونه مع السلطات، بالإضافة إلى المكافأة المالية التي صرفوها له.

إضراب بيتسبرج الكبير

مشاهد تشويقية من هجوم من محدثي الشغب

على قوات دفاع الولاية.

في يوليو 1877، خلال إضراب عمال شركة قطارات بنسلفانيا في بيتسبرج. بدأ الشغب يوم الأحد 21 يوليو في بيتسبرج وما حولها، أغلب المشاغبين من عمال الغزل وعمال المناجم الذين تعاطفوا مع عمال السكة الحديد الذين بدأوا هذه الاحتجاجات.

لم تتحرك عربة أو قطار لمدة أيام بسبب أحداث الشغب، وانحلت صفوف الشرطة قد تعاطف بعض أفرادها مع المضربين، لذا اضطر الشريف إلى طلب ميليشيات (3) الولاية لمساعدته، تحت قيادة الجنرال ناجلي.

المفاجأة أن كثيرًا من أفراد الميلشيا تعاطفوا مع المضربين وتركوا أسلحتهم وانضموا إلى صفوفهم، فطلب الحاكم تعزيزات من فيلادلفيا؛ قوات الفيلقين الأول والثاني من الميلشيا. وصل الفيلقان عند ظهيرة يوم السبت بقيادة الجنرال برينتون، وانطلقوا إلى حيث التجمعات التي وصلت في بعض الشوارع إلى عشرة آلاف شخص مسلحين بالأسلحة النارية والهراوات. أطلقوا عليهم الرصاص وجردوا أغلبهم من أسلحتهم بقوتهم الغاشمة.

أبلت القوات بلاء حسنًا في هذه الظروف الاستثنائية، لكن أعداد المتظاهرين الغفيرة أجبرتهم على التراجع إلى مقر شركة سكك حديد بنسلفانيا في شارع رقم 28، وحصروا هناك حتى مساء السبت.

في نفس الوقت، وجد المشاغبون شحنة من النقط الخام في عربة من عربات القطارات المتوقفة بسبب الإضراب، بالقرب من مكان حصار قوات الميلشيا المنخفض قليلًا عن مستوى الأرض حول السكة الحديد.

من المضربين عمال سكة حديد، ويعرفون كل شيء عن عربات القطارات، فتعاون بعضهم على فك العربة، ثم إضراب النار فيها، ودفعها نحو مكان الميليشيات.

تراجعت القوات بحرفية عالية رغم الذعر الرهيب الذي أحدثته تلك الفعلة. أصيب عدد كبير منهم بالحروق وطلقات الرصاص ورشق الحجارة. وصلوا في انسحابهم إلى جسر شاربسبرج شمال بيتسبرج، وكوَّنوا معسكرًا فوق التلال، حيث انتظروا المدد، وأعاد من تبقى من قوات ترتيب هجماتهم.

بعد إضرام النار في القوات، وفي نفس الليلة، اقتحم المشاغبون المتاجر وورش الأسلحة ونهبوها. رأى كاتب هذه السطور الرجال والنساء ينهبون المال والملابس والأسلحة والطعام، ويسيرون متأرجحين بحمولاتهم التي

تسقط منهم على الأرض، فيتصارع عليها المزيد من الناس.

بحلول الساعة العاشرة صباحًا في اليوم التالي، اكتشف المضربون عربةً تحمل شحنة أدوات مطبخ معدنية، وعربة كحوليات، فكسروا البراميل التي تحول الخمور وصبوا ما فيها في الأكواب وشربوا في الشوارع حتى الثمالة، وزادت خطورة أفعالهم غير المسؤولة، فاقتحموا العربات في الشوارع والبيوت. لم نجد بُدًّا من حجز الجميع في السجون حتى يفيقوا، فصارت السجن متخمة، لكن لحسن الحظ، قلَّل هذا من عدد المضربين في الشوارع حيث اعتقل بعضهم، وصار البعض بلا قوة ولا قدرة على التركيز.

في الحادية عشرة صباحًا من صباح الأحد، رأيت رجلًا يدعى جيمس بويد –عرفت لاحقًا أنه من بنسلفانيا، ويعمل في حانة في بيتسبرج- ومعه عدد من رفاقه يدحرجون برميلًا من النفط الخام نحو مكتب خدمات السكة الحديد، ثم يفتح غطاءه، ويسكب ما فيه على الأرضية ويضرم النار في المكتب على الفور. في نفس الليلة أشعل بويد النار في صومعة حبوب جنوب مكتب السكة الحديد السابق ذكره. كل تلك الحرائق وقعت مساء الأحد قبل اكتشاف السطو على عربة الخمور.

غادر بويد بيتسبرج في مساء الأحد بعدما بدأ المواطنون في التصدي للثملين في الشوارع وتسليمهم للسجن. هرب

إلى مانسفيلد حيث مسكن أبيه، وهو المكان الذي اعتقلناه فيه لاحقًا.

في يوم الأربعاء التالي، وبعدما هدأت الأمور، وفُرِضت الأحكام العسكرية، أجَّرت حصانين وعربة تغطي الستائر نوافذها، ثم أرسلت في طلب العريف كولسون من قوات الشرطة، وهو رجل قوي ضخم، وأخبرته أنني عرفت مكان بويد وسأذهب لاعتقاله بتهمة الحريق المتعمَّد، وقد كنت شاهدًا عيانًا على ذلك يوم الأحد الماضي. أخبرت بولسون كذلك أن أغلب مثيري الشغب الخطرين قد فروا إلى مانسفيلد، حيث فرَّ بويد، وغالبًا هم يسكنون الفندق المملوك لوالد بويد.

وافق كولسون على مرافقتي على شرط اصطحاب شرطي آخر معنا، ورشح لي جون موران. ارتدى رفيقاي زِيًا مدنيًا، وقدت أن العربة التي يجرها الخيول وجواري كولسون، وفي المقعد الخلفي موران.

كان المطر يهطل حين غادرنا بيتسبرج، وقطعنا مسافة سبعة أميال حتى مانسفيلد الواقعة على ضفاف جدول.

الطريق إلى هناك مليء بالمرتفعات والمنخفضات، وقبل وصولنا إلى وجهتنا، رأينا من فوق آخر مرتفع على الطريق تجمهرًا ضخمًا حول فندق والد بويد، وحين اقتربنا منهم تعرف على عددٍ من الوجوه التي رأيتها في أحداث الشغب.

الجمع غاضبٌ، خطر، لا يوحي بخير.

كنت أريد التنبيه فقط على أن رفيقنا موران كان أكثرنا إرهاقًا؛ كان منغمسًا في التعامل مع أحداث الشغب طيلة الفترة الماضية، لذا حين وصلنا قرب الفندق، فقدَ الرجل الوعي وهوي من مقعده إلى أسفل العربة. هرعنا إليه لإفاقته ظنًا منه أنه مُتعب، لكننا اكتشفنا في جيبه زجاجة ويسكي صغيرة قد شرب ما فيها حتى فقد الوعي.

كان الوقت قد فات لتغيير خططنا والبحث عن معاون آخر. نزلت إلى الفندق أتحرى ما يجري. رأيت في المشرب الرجال يتدافعون على الخمور، وبويد ووالده يسارعان إلى تلبية الطلبات. لكزت الواقفين حتى وصلت إلى جيم بويد، وطلبت منه همسًا مشروبًا لصديق لي يعاني من كثرة الشرب وفقدَ وعيه. نقدته دولارين، فسدهما في جيب مريولته وقال باسمًا:

- سأحضِّر له مشروبًا دافئًا فورًا.

حين خرج لنا بويد، طلبت منه أن يناول المشروب لكولسون الذي أخبره بدوره أن صديقنا تحت العربة –وكان في الحقيقة داخلها- وحين اقترب بويد منه، أمسكه من قذاله، وأدخله إلى العربة مُسدَلة الستائر، فركبت أنا وقدت العربة بأقصى سرعة إلى بيتسبرج مخترقًا الحشود حول الفندق. لاحظ أحد الرجال ما حدث، فطاردنا على صهوة

حصان ومعه رجاله، وكانوا أكثر منَّا سرعةً كون عربتنا تعاني مع وهدات الطريق.

طيلة هذا الوقت، ظلَّ كولسون ممسكًا ببويد، مثبتًا إياه فوق موران فاقد الوعي، بينما المجرم يصارع للهرب.

كانت الخطة أن يثبت كولسون المجرم، وأقود أنا العربة. ليس معنا ثالث الآن ليتولي أمر مطاردينا. وكأن تنقصنا المصاعب، ضربتنا أمطار رعدية أجبرت خيولنا على التملص والاستدارة للسير مع اتجاه الريح والأمطار. لكن لحسن الحظ، فكما ضربتنا العاصفة، ضربت متعقبينا وأجبرتهم على التراجع.

النتيجة أننا وصلنا بيتسبرج ومعنا سجيننا. لم يفق موران حتى وصلنا وسلمناه إلى زوجته، ولم نخبر أحدًا بما حدث، كونه رجلًا طيب الأخلاق، يجيد عمله، ولم يقصر فيه برغبته.

أعتقد أن رحلتنا هذه كانت من أكثر مهامنا إثارة.

حُكم على بويد بالسجن أربعة عشر عامًا. قاضت شركة السكة الحديد مقاطعة آليجاني ومدينة بيتسبرج بسبب الخسائر التي تكبدتها خلال الإضراب، وكسبت الشركة القضية وحصلت على تعويض قدره مليوني دولار.

أصدرت المدينة والمقاطعة سندات بقيمة المبلغ المستحق، وطرحتها للبيع للمواطنين بفائدة سنوية،

لتستطيع سداد قيمة التعويض الضخم هذا.

---

(3) قوات مسلحة غير نظامية

مقتل المُحصِّل فريزر.

الكلاب تتعقب آثار الدماء، وتتسبب في اعتقال المجرم.

في عام 1885، حاول مُقنَّعون السطو على قطار من قطارات شركة انترناشونال آند جريت نورثرن. وقعت المحاولة في بداية فبراير، والجو بارد والثلج يغطي الأرض بطبقة سُمكها بوصتان.

مُحصل القطار يومها كان فريزر. توقف القطار في محطة أوفرتون وركب حارس القطار – ومهمته التأكد من عدم وجود متسللين- فوجد رجالين مختبئين في عربة المتاع عند النهاية، وكل عربات هذا الوقت كان لها بابان عند نهايتيها. أمرهما الحارس أن يترجلا، لكنهما نهضا وأشهرا سلاحيهما في وجهه، ولاحظ أنهما يرتديان قناعين. هرع إلى المحصل فريزر يخبره بما رأى، وقد ظن أنهما متسللان يرغبان في توصيلة مجانية.

عاد فريزر مع أحد عمال القطار يدعى باورز إلى عربة الأمتعة، وبمجرد أن فتح الباب، أطلق عليه الرجلان النار، فسقط خارج القطار. ظهر من خلفه باورز، لكنه سارع بالهرب إلى مقدمة القطار. تبعاه وأطلقا عليه الرصاص فأصيب بجراح بالغة.

وصل ما حدث إلى نائب الرئيس والمدير العام السيد هوكسي، في سانت لويس، فأرسلني على متن أول قطار

إلى أوفرتون.

وصلت أوفرتون في الصبح التالي فعرفت - إلى جانب المعلومات السابق ذكرها- أن اللصين جون نايت وجون برايس قد خططا لركوب قطار فريرز والنزول منه لركوب قطار آخر سيمر جواره في نقطة في جالفيستون، فيسرقا هذا القطار الأخير. لكن تسللهم إلى قطار فريزر انكشف وأدى إلى تدهور الأمور كما حكيت، فهربا عن متن القطار متجهين إل منزليهما في مدينة صغيرة قرب أوفرتون، وقد سهل الثلج على الأرض تعقبهما.

بالطبع زال أثرهما حين وصلا الطريق الرئيسي وسط عشرات الآثار الأخرى.

استكملت تحرياتي التي استهلكت يومين آخرين. في نفس الوقت، أُرسل عدد من الكلاب البوليسية المُدربة - المملوكة لشركة تيكساس وباسيفيك- إلى أوفرتون، ومعهم مدرب يدعى موندون.

أُخِذت الكلاب إلى حيث ترجل المُقنَّعان من القطار على بُعد ميل ونصف من أوفرتون. تتبعت الكلاب رائحة الرجلين حتى المدينة، حيث تشتت من كثرة الروائح الأخرى، حتى شمَّ كلب منهم يُدعى «لي» رائحة جذبته إلى سور يحيط بمنزل جون برايس. تبع الكلب عددٌ من المارة والفضوليين. ظل الكلب ينبح أمام السور حتى أسكته

موندون، فعاد الكلب إلى النقطة التي قادته إلى بيت برايس، وبدأ ينبح مرة أخرى ويجول حتى وصل إلى بيت جون نايت وتوقف.

نايت وبرايس متزوجان من شقيقتين، وكلاهما كان مع الحشد الذي تبع الكلاب.

بينما يحدث هذا، كنت أحقق في هدوء وتوصلت إلى ما يؤكد تخمين الكلب، الذي كنت أخشى أن يقودنا إلى أبرياء.

ذهبت إلى مقر شركة انترناشونال آند جريت نورثرن في بالستين، على بُعد أربعين ميلًا جنوب أوفرتون. قابلت هناك عامل القطار وهو من الشهود على الجريمة، وقد عرفت أنه مستعد للتعرف على المجرمين خاصة لو ارتديا نفس الملابس التي كانا يرتديانها ليلة الجريمة.

أرسلت إلى واحد من مساعديّ اسمه ماكبي، ليأتي إليَّ بالستين، ثم أخذته والحارس وذهبنا إلى حلَّاق حيث طلبت أن يُزال شارب وسالفا الحارس المدعو ديفيز المميزان – وقد اعترض على ذلك كثيرًا- ثم اشتريت له قبعة كبيرة مما يرتديها عمال المزارع في هذه المنطقة. أرضاني التغير الذي طرأ على مظهره والذي أظن أن أمه ستكون عاجزة عن التعرف عليه لو رأته.

طلبت من ماكبي أن يركب القطار التالي وينزلا عن القرية

التي يعيش فيها برايس ونايت، ويرافق ديفيز في الشوارع حيث يترك لع فرصة النظر في وجوه الناس على أمل أن يتعرف على المجرمين دون أن يرشده أحد.

بعدما وصلا بقليل، عبرا جوار دكان حداد، ولاحظ ديفيز جون برايس وتعرف عليه، وكان الأخير يرتدي ملابس الحدادين ويثبت حدوة إلى حافر حصان.

كما تعرف ديفيز على نابت لاحقًا حين رآه يسير خلف الكلاب البوليسية في نوبة بحث أخرى. أبلغني ماكبي بالنتائج، فطلبت منه أن يعيد ديفيز إلى بيته، ثم يمكث في بالستاين وينتظر التعليمات.

كان باورز، حارس القطار الذي أصيب من قبل، في المستشفى بعدما تجاوز المرحلة الخطرة، وعرفت أنه مستعد للتعرف على المجرمين.

خططت لإلقاء القبض على برايس ونايت بعدما تعرف عليهما ديفيز ودلَّ عليهما الكلب البوليسي، على أمل أن يستطيع باورز رؤيتهما. أخذت الرجال ومعي أوراق الاعتقال، وطرقت باب جون نايت، ففتح لي بنفسه، فاعتقلته وأمرته بالتزام الهدوء، ثم أكملت الطريق إلى دار برايس، وتوقعنا بعض المصاعب إذ كان معروفًا عنه سوء السلوك ومحبة الاختلاط بالمجرمين. أرسلت ماكبي – وهو رجل ضخم- إلى الباب الخلفي للمنزل، بينما وقفت

ومساعدي وروجر عند الباب الأمامي وطرقته. جاءني صوت رجل يسأل عما نريد ومَن نكون، أجبته أننا رجال قانون ومعنا أمر اعتقال.

قال برايس – وهو الذي أجبنا- إن علينا أن ننتظر حتى ينهي إفطاره ويرى إن كان يرغب في الذهاب معنا أم لا.

كان البيت عبارة عن كوخ صغير، ذي مدفأة مبنية خارج الجدار. بين المدفأة والحائط شق واسع يمكن من خلاله أن أرى غرفة النوم الضيقة، وأرى البندقية التي يحتفظ بها فوق رف هناك، بينما يرقد هو على الفراش. قام بعدها إلى سلاحه، فصحت أن البيت محاصر الأفضل أن يتخلى عن سلاحه.

- اخرج يا برايس حالًا، أو اترك زوجتك وأطفالك يخرجون قبل أن نبدأ إطلاق النار على المكان حتى نحرقه بمن فيه.

ترجته زوجته أن يفتح الباب، ففعل. أخذنا سجيننا مع السجين الأول وانطلقنا إلى مستشفى السكة الحديد فعرضناهما على باورز وسط عدد آخر من الرجال. نظر إليهم باروز وهو يدير عنقه في وهن، ثم رفع إصبعه نحو برايس وقال:

- هذا أحد المجرمين.

ثم أدار رأسه إلى نهاية الصف وأردف:

- وهذا هو الآخر.

من ثم، أخذنا المجرمين إلى السجن. في المحاكمة، طالب محامو المجرمين فصل القضيتين، واقترح محامي الدفاع البدء بنابت، باعتباره أكبرهما ويبدو أنه المحرض على الجريمة. حُكم عليه بالسجن عشر سنوات بتهمة القتل غير المتعمد، فطلب محاميه الاستئناف، وخرج برايس بكفالة.

خرجت ومعي صديقي بويد خارج القاعة نتناقش في أمر الحُكم، فلاحظت شابًا ثلاثينيًّا أنيقًا يتبعنا ويبدو أنه يحاول التصنت علينا، وينظر إليَّ كأنه يحمل ضدي ضغينة.

بعد دقائق من مراقبته لنا، اقترب مني وقال:

- فُولرونج، أنا أعرفك، وأريدك أن توقن أنك لن توقع بجون برايس، وأنني سعيد أنه سيخرج بكفالة.

قلت له إنه سواء لدي إن أدين برايس أو أبرئ؛ أنا فقط أؤدي عملي وأقدمه إلى محاكمة عادلة. قال لي:

- كنت أخشى أن يظل برايس في السجن حتى موعد انعقاد المحكمة التالي، لكنه سيخرج وسأقتله قبل موعد المحاكمة. لقد قتل أخي ولم يُحاكم من قبل، وأنا أنتوي قتله.

- لو كنت في مكانك لما تكلمت مع أحد في نيتي هذه،

وإلا وقعت في المشاكل.

- لا يهمني أن تعرف شيئًا عن نيتي، لكنني أردتكم أن تعرفوا جميعًا ما أشعر به.

ثم مدَّ يده يصافحني، ثم أضاف:

- احترس وتذكر ما قلت.

بعد أربعة أو خمسة أسابيع، خرج برايس من بيته في صباح مبكر، فخرج له من كان يتربص به، وأطلق على رأسه النار فمات من فوره.

لم يفلح أحد في تحديد هوية قاتله حتى الآن.

وفاة بيل كاسي التراجيدية

قضية قابلتها وأنا أحقق في قضية السرقة والتسلل

في عام 1872، وبعد عامٍ من انتخابي رئيس شرطة مدينة النفط – وكان لي الشرف أن أكون أول رئيس شرطة لهذه المدينة المميزة- سُرقت الخزيمة في متجر هنري فير في ليلة السبت. تحوي هذه الخزانة عددًا من السندات، وأوراق نقدية ومستندات هامة.

لم تُكشف السرقة قبل يوم الاثنين التالي، واكشتفها السيد فير نفسه، وهو الشخص الوحيد الذي يعرف أرقام فتح الخزينة.

وجد السيد خزينته مغلقة كالعادة، وحين فتحها وجدها خاوية. أبلغ على الفور بالسرقة وبعد الفحص لم نجد أثرًا لسطو؛ مداخل المتجر كلها مغلقة. عرفت كذلك أن المال والأوراق كانوا فى الخزينة حتى العاشرة من مساء السبت، وعرفت كذلك أن المتجر كان مزدحمًا وقتها بالزبائن. بعد فحص أطول، فطنت إلى أن الخزينة قد سُرقت عن طريق التسلل.

خلال ساعات العمل، يظل الباب إلى حجرة الخزينة مواربًا لتسهيل دخول العاملين الذين لهم صلة بالحسابات كما هو شائع، واستنتجت احتمالية تورط شخصين على الأقل في الخدعة، حيث شتت واحد انتباه الموظف الأقرب

للخزينة، وتسلل الآخر ليأخذ المال دون أن يراه أحد، لكن لا بُدَّ أن هذا قد حدث قبل غلق المتجر مباشرة إذ تكون الأموال ومحتويات الخزينة في مكان ظاهر قبل قبل أن يعيدها السيد فير بنفسه إلى الخزانة.

بعد المزيد من التحريات، عرفت أن شابين قد زارا المتجر في تمام العاشرة مساء، اشترى أحدهما علبة تبغ، وأضاع الآخر وقتًا طويلًا في انتقاء حذائين لم يشترِهما في النهاية. أحدهما لشابين اسمه باتش دي ويت، يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، والآخر ويليا هيلمان في الثانية والعشرين من عمره. أهل الشابين ذوو سمعة جيدة من الطبقة الكادحة المقيمة في مدينة النفط، أما الشابان فذوو سمعة سيئة، لكنهما لم يسرقا حتى هذا اليوم.

قررت البحث عنهما واستجوابهما، فعرفت أن أحدًا لم يرهما منذ ليلة السبت، وعلى الأرجح قد غادرا المدينة.

لداتس دي ويت عشيقة اسمها هاتي بيتس، هي راقصة محترفة عمل لدى بين هوجان، صاحب صالة رقص في مقاطعة باتلر.

لعلم القارئ، بين هوجان ملاكم يلعب لأجل كسب المراهنات وهو رياضي عمومًا، هزم الملاكم توم آلِن في بطولة الوزن الثقيل. بعدها ترك هوجان الملاكمة واستقر قي بترولیا وعمل في مجاله الحالي.

أثناء إدارته لصالة الرقص، تورط مع مجموعة من مثيري الشغب في المكان، وقتل أحدهم وتسبب في حروج بالغة للآخرين وأدين بالقتل. حين عرفت بالأمر، تعاطفت معه، بمعرفتي أنه لم يقتل إلا دفاعًا عن ممتلكاته. حاولت مساعدته في قضيته حتى خُفف عنه الحُكم، ومن يومها ونحن صديقان.

عفت أن عشيقة باتش دي ويت تعمل لديه، فأسرعت إلى بتروليا ظنًّا أنني قد أجد الشاب في زيارة لمعشوقته. وصلت في يوم الأربعاء التالي للجريمة، وكانت هذه هي أولى زيارتي لبتروليا؛ مدينة النفط والمناجم. تتكون المدينة من شارع رئيسي يربطها ببعضها، أغلب مبانيه بيوت استضافة، وحانات، مراقص، وصالات قمار.

بحثت عن مرقص هوجان حسب الوصف؛ أكبر مباني المدينة، لكني وجدت ثلاثة مبانٍ في نفس الحجم، فسألت أيها لهوجان، فأشار لي أحد المارة إلى الأوسط. دخلت من الباب الأمامي المفتوح، ووجدت المكان هادئًا إذ كنا في وقت العصر. انعطفت يسارًا إلى مشرب يقف فيه شاب أشقر طويل في الثلاثينيات. هذا الشاب هو بيل كاسي، الملاكم سيئ السمعة.

عرفت كاسي وعرفني، وكان يتحدث إلى أحد الموظفين. استدار نحوي وحيَّاني قائلًا:

- مرحبًا أيها الرئيس. ماذا تفعل هنا؟

تصفاحنا وأجبته:

- كنت أمرّ من هذا الطريق لأمر خاص بالعمل، وقال لي صديق إن هذا المكان ملكك، فقررت أن أمر لأحييك.

- أنا سعيد لمرورك. قلت إنك هنا لأمر عمل، وتعرف أنني مشهور وسط من تلاحقهم. لو احتجت أي مساعدة، أخبرني.

شكرته وأخبرته أنني ربما أحتاج إلى مساعدته لاحقًا. قال لي:

- هل تعرف كيتي؟ (هي زوجته).

- أجل، أتذكرها.

ثم ناداها، فحضرت وقال لها:

- كيتي، هل تذكرين السيد فُرلونج؟ هو رئيس الشرطة وأريدك أن تحييه.

جاءت تصافحني معلنة أنها لم تنسَ قطعًا، ثم أضافت:

- لطالما تحدثنا عنك أنا وبيل. لقد فعلت أفضل ما يمكن فعله حين اعتقلت بيل في مدينة النفط، وعاملته ألطف معاملة، ولم تحاول قتله حين حاول الهرب رغم ما فعله معك أنت ورجالك. أنت تعرف أن سوء أخلاقه كان مرتبطًا

بثمالته الدائمة، وأكَّد لك أنه لم يمس قطرة خمر منذ ذاك اليوم. لقد صنعت منه رجلًا وأنا مدينة لك.

قلت لها:

- أقدّر مشاعركما الطيبة، وسعيد للاطمئنان على أحوالكما.

كانت العلاقة بين بيل وزوجته قد وصلت إلى طريق مسدود قبيل اعتقالي له، ويبدو أن كل شيء قد تغير للأفضل منذ وقتها.

أريد أن أوضح للقارئ هنا أنني لم أدخل مشرب بيل طواعية، ولم تكن لدي أدنى فكرة أنه هنا. أنا دخلت هذا المكان بالخطأ لا أكثر، لكني اختلقت الحديث عن المرور عليه وتحيته كي لا أكسر خاطره.

سألته عن مكان باتش دي ويت، صديق هاتي بيتس التي تعمل لدى بين هوجان. أجابتني زوجته:

- أنا صديقة السيدة هوجان. سأذهب وأعرف لك إن كانت تعرف شيئًا عن دي ويت.

فعلت ما قالت، ثم عادت بعد دقائق وقالت لي:

- كان باتش دي ويت هنا الليلة قبل الماضية ومعه لص شاب آخر يُدعى هيلمان، وقد غادرا أمس صباحًا ومعهما قدرًا من المال. قالا إنهما متجهان إلى برايتون في عمل،

وسيعودان خلال يومين.

أخذت أول قطار إلى برايتون، وعرفت أن خزينة أحد المصانع قد سُرقت الليلة الماضية، وتلقيت من الشهود وصفًا دقيقًا لهيلمان ودي ويت، تعقبتهما إلى فندق في روشيتسر، يقيمان فيه تحت اسمين مستعارين. اقتحمت غرفتهما واعتقلتهما وعدت بهما إلى مدينة النفط.

أخلى هيلمان مسؤوليته عن الحادث، وقال أنه كان يختار حذائين، وتسلل دي ويت دون علمه فسرق الخزينة، لكنه اشترك معه في دفن السندات والأوراق في علبة صفيحية في مزرعة جنوب مدينة النفط. اصطحباني إلى هناك حيث وجدت العلبة ومحتوياتها.

حُكم على الشابين بالسجن بتهمة السرقة.

نعود للملاكم بيل كاسي...

المرقص يعود عليه بمال مناسب، ومهد له علاقات جيدة مع المحليين، وعرف بحسن السمعة وطيبة القلب خاصة بعدما أقلع عن الشرب.

في الكريسماس التالي لمقابلتنا، أخذ زوجته وغادر بترولیا لزيارة والديه اللذين يعيشان في نيويورك. ركبا قطارًا مختلطًا، يحمل الركاب والبضائع والمتاع والنفط، وكانت عربتهما عند نهاية القطار.

كان القطار مزدحمًا بالمسافرين لقضاء عطلة الكريسماس، ويحمل فوق وزنه الآمن بكثير. في منعطف ضيق قرب سكربجراس، انكسر محور إحدى العربات الأمامية للقطار، والتي تجر باقي العربات، وسقطت بحمولتها من النفط الذي انفجر وأحرق كل شيء حول القطار وانتشر على سطح ماء النهر المجاور.

غرق أغلب الركاب واحترق آخرون. نجح كاسي في الهرب من الحطام وأنقذ زوجته، فلم يصبهما إلى حروق طفيفة. وقتها رأى شاب يمنعه الحطام عن الحركة، وتهرع نحوه المياه المشتعلة، فترك زوجته وهرع إليه يساعده، لكن أثناء محاولاته، جرفه تيار الماء المشتعل وفقدَ حياته أثناء مهمة إنسانية بطولية، تؤكد لي دومًا أن المجرم قد لا يظل مجرمًا إلى الأبد إن وجد من يتقبله ويساعده على تخطي الإجرام والماضي المشين.

حيلة ناجحة

وفاة الأخين المأسوية بعد محاولة هربهما

في بداية 1870، اتصل سام أكيرت بمكتبي في صباح يوم بارد من فبراير. كنت وقتها رئيس شرطة مدينة الزيت.

السيد أكيرت لديه شركة عقود نفط، وكان يعتبر من أكبر العاملين في مجال النفط في المنطقة؛ كان يدير خمس عشرة بئر نفط تنتج أطنانًا.

كل هذا كان يحتاج إلى موظفين لإدارته، ومنهم من يسمونهم مهندسي بترول، أو مُضِخِّو بترول، يتولى إدارة كل بئر واحدة منهم أو اثنتين، يعملان من الثانية عشرة ظهرًا حتى منتصف الليل.

لدى السيد أكيرت مشرف يراقب العمل، ولديه مهندسان؛ جورج وهنري بوك، وهما أخوان. يعمل جورج – الأصغر- في وردية الليل، وهو مهندس ماهر يُعتمد عليه، على عكس أخيه الأكثر كسلًا، والذي تسبب نومه أثناء العمل في فصله.

بعد عدة أشهر من فصل هنري، وصلت السيد أكيرت خطاب من مجهول، يهدده بحرق ممتلكاته ما لم يفصل المشرف سوليفان –وهو من اكتشف إهمال هنري-، تلا هذا الخطاب ثلاثة آخرون يفصل بينهم أربعة أيام.

كان السيد سوليفان موظفًا ممتازًا، فلم يعبأ السيد أكيرت بالرسائل، وكان يتركهم على مكتبه. بعد تلقيه آخر خطاب، أُفرِغت إحدى حاويات الزيت المملوكة له – وتحوي خمسمائة برميل من النفط الخام- وبدا أن من أفرغها قد تسلَّل في وقت بين الليل النهار.

في تلك الليلة التي حدثَ فيها الإفراغ، كانت الأرض مغطاة بثلاث بوصات من الثلج، لكن المكان أسفل صنبور الإفراغ لم يكن يتجمد حتى في الليالي الباردة، وسرى النفط الخام في مسارات طويلة، لحسن الحظ لم يبلغ أيها النار الموقدة تحت غلايات محطات الضخ.

استدعاني السيد أكيرت، وحكى لي ما حدث، وعبر لي عن حيرته بصدد الفاعل المجهول، وطلب مني التحقيق في الأمر.

فحصت الخطابات فوجدتها مكتوبة بنفس الخط ونفس القلم نفس نوع الورق. في اليوم الثالث من التحقيقات علمت بأمر فصل هنري بوك، ومشاكله مع المشرف سوليفان، وعن أخيه المحترم.

قررت البحث عن كاتب الخطابات المجهول، فاستعرت أوفرول مُستخرجي النفط. عرفت أن جورج بوك لن يبدأ ورديته قبل منتصف الليل. اشتريت قبله بخمسة سنات كبد من متجر السيد ستيل، وأخبرته أنني أريدها لإطعام قط في

مكتبي.

ارتديت ثيابًا ثقيلة تحت الأوفرول، ووضعت قطعة كبد في تجويف كفي اليمنى، وأخرى في منطقة أعلى، وربطت عليهما ضمادة، تلوثت فورًا من الكبد وبدا الأمر كأن يدي متورمة تنزف. علقت ذراعي المضمدة إلى كتفي باستخدام منديلين مربوطين إلى بعضيهما، وخرجت من مدينة النفط، لم يتعرفني أحد بسبب تنكري، ووصلت إلى شركة أكريت بعد التاسعة مساء بقليل.

توجهت إلى جورج البوك، الجالس وحده أمام نار تحت الغلاية المتوهجة دفئًا ونورًا، يقرأ كتابًا، ويبعد مجلسه عني بضع أقدام عن الطريق الرئيسي.

كان مألوفًا لدى العاملين في مجال النفط أن يرتاحوا قليلًا في الليالي الباردة جوار الغلايات، ليشربوا شيئًا، لذا لم يفاجأ جورج لظهوري في هذه الأمسية.

طلبت إذنه أن أقف جور الغلاية لأحظى بالدفء، فوافق وقال إنه سيكون مسرورًا لصحبتي. سألني أخيرًا:

- أين تعمل؟

- في آبار نفط مزرعة فوستر، على بُعد خمسة عشر ميلًا جنوبًا غرب مدينة النفط.

- كيف جُرِحت؟

- أنت كريم معي للغاية، لذا سأخبرك. أنا حفَّار وكنت أعمل تحت إشراف مشرف، وتعاركنا على حب فتاة، فأطلق الرصاص على يدي.

حركت يدي أمامه وأخرجتها من حمَّالتها، فصاح:

- إلهي! يا لها من إصابة! يجب أن يراها طبيب على الفور.

- سأذهب إلى طبيب حين أصل إلى مركز البترول. لم ترَ ما فعلت بالمشرف.. أطلقتُ عليه النار، ولا أعرف إن كان حيًا أو ميتًا. لقد رحلت فورًا.

- لا بُدَّ أنك جائع.

كان تعاطفه يفوق الوصف، فهو رجل عطوف للغاية. قلت له:

- لدي أصدقاء يعتنون بي حين أصل إلى مركز البترول، وسيحمون وجودي. ما يقلقني الآن هو أنني عاجز عن الكتابة بيدي اليسرى، وكنت أريد أن أرسل خطابًا لأهلي ليرسلوا لي المال الذي أدخره معهم. يجب أن أرسالهم الليلة كي يلحق الخطاب بقطار باكر، فيرسل لي أهلي المال وأستقبله في مركز البترول بعد غد.

قال لي:

- أنا كاتب ماهر وسأسعد بكتابة الرسالة بدلًا عنك.

استأذن مني وذهب إلى بيته القريب فأحضر منه قلمًا وورقة ومظروفًا، ووجبة كبيرة وترموس قهوة ساخن. أكلنا، وشاركته سجائري، ثم بدأ يكتب الخطاب وأمليته في السياق أغلب الكلمات التي وردت في الخطاب مجهول المرسل، كي أستطيع أن أقارن لاحقًا طريقة كتابة الكلمات بين الخطابين. لاحظت بعد كتابة ثلاثة أسطر أن الخط مشابه للغاية لما وردَ في الخطاب، بل ونفس نوعية الأقلام.

أخذت منه الخطاب وشكرته ثم انطلقت إلى مدينة النفط ووصلت في السادسة صباحًا. عرضت الخطابين على خبير خطوط متمرس، وأكد لي أن الكاتب نفس الشخص، وكتب الخطابات بنفس القلم. عدت إلى آبار النفط حيث قابلت جورج الليلة الماضية، عالمًا أنه لن يكون هناك وقت وصولي. فحصت الثلج تحت صنبور الحاوية، فوجدت أثر حذائين من مقاس 8، مُرقَّع بنصف نعلٍ مثبت بثلاثة مسامير متجاورة.

ذهبت إلى صانع الأحذية المحلي، وتذكر أنه قد أصلح حذائي هنري بوك منذ أيام، أي قبل إفراغ الحاوية.

عدت إلى مدينة النفط واستخرجت أمر اعتقال، وذهبت أعتقل جورج في بيته، حيث وجدت هنري في فراشه. اعتقلنا الرجلين، ووجدنا في مخزن المنزل براميل نفط مسروقة.

خضع الأخان للمحاكمة، وأفرج عنهما بكفالة. اعترف هنري بوك بافراغ الحاوية، واعترف جورج بكتابة الخطابات.

بعد حبسهما بأسابيع، دمرت عاصفة جزء من جدار السجن، وفرَّ أكثر من خمسة عشر سجينًا، من بينهم الأخوين بوك. ركب الأخوان قطارًا متجهًا إلى فرانكلين، لكن القطار تصادم بآخر بسبب العاصفة الثلجية، فمات هنري جُرح جورج جرح بالغ، أدى إلى وفاته في الصباح التالي.

وهكذا انتهت قضية أكيرت نهاية مأسوية.

الخارج عن القانون تشارلي دالتون

اعتقال المجرم وسط حشد في أكثر شوارع سانت لويس ازدحامًا.

وقع اعتقال المجرم تشارلي دالتون في يوم 12 مارس 1888.

ظلَّ دالتون يهرب من مكان لآخر لمدة عامين، رغم رصد الولاية مكافأة مالية لمين يعتقله. أوصافه مع كل شرطي ومحقق ومفتش في الولاية.

جريمته جريمة قتل وقعت أثناء إضراب 1886، حيث سطا على قطار في محطة فورت وُرثَ، برفقة عصابته وقتل حارسي قطار وجرحت عصابته عشرات آخرين، ولذا لُقّبت بمذبحة فورت وُرث.

مثلت العصابة أمام المحكمة، وخرج أعضاؤها بكفالة حتى موعد المحكمة النهائية، لكنهم هربوا ولم يعثر عليهم أحد رغم كل الجهود والمكافآت المرصودة.

وصلتني أحد إشعارت البحث عن المجرمين، فتواصلت مع شرطة فورت وُرث فورًا. لم أكن قد رأيت دالتون من قبل، لكني أعرف شقيقه جيري، ورأيت التشابه بينه وبين صورة تشارلي.

وصلني من أحد محققي أن تشارلي شوهد في منزل أمه

في كاروندیلیت. ذهبت أراقب المكان وعرفت أن تشارلي يزور مسرح ستاندراد كل لسلة.

نسقت مع رئيس شرطة سانت لويس ليرسل رجلين مع مساعدي ليعتقلا المجرم هناك. في السادسة مساءً خرجت من مكتبي قاصدًا بيتي وكنت أسكن في شارع ولنت. سرت حتى شارع ثمانية وركبت عربة عمومية تجرها الخيل إلى بيتي.

عند وصولي لشارع عشرة، حدث أن رجلين ضخمين ألقيا نفسيهما على العربة –بنية الركوب معي- وحطَّ واحد منهما على ساقي فآلمها، ولحق به الثاني يتعلق بالعربة. لم يعتذر أحدهما عما فعل، ولم يهتما إن كنت قد أُصبت، بل قال واحد للثاني:

- على المرء أن يفسح حين يرى رجلًا يحاول اللحاق بعربة.

قال الثاني بعدما استقرا جالسين:

- تشارلي، لا يمكن أن نمكث عند جيري أكثر من دقائق، كما تعلم لدي تذكرتان لمسرح ستاندارد الليلة ويجب أن نحضر مبكرًا لنحظى بمكان جيد.

- لن نمكث طويلًا، سنودعه سريعًا.

نظرت إلى من يُدعى تشارلي، ووجده يشبه الصورة

معي، وأعرف من يكون جيري، وأعرف أيضًا أن العربة لا بُدَّ ستعبر من أمام نقطة شرطة ماونتد بين شارعي رقم27 و28.

قررت أن أعتقل تشارلي دالتون حين نكون أمام نقطة الشرطة. فعلت هذا وأمسكت ياقته وجذبت حبل جرس العربة فتوقفت. نزلت من العربة ومعي دالتون الذي سقط على ظهره في الشارع. تشبثت بياقته وأنا أمدّ يدي إلى سلاحه المثبت إلى حزامه.

حاول دالتون النهوض، لكني ضربت مؤخرة رأسه بمقبض سلاح وقلت:

- لأي غرض تحمل سلاح؟ أنت تشارلي دالتون ومتهم بجريمة قتل.

قال لي:

- أنا تشارلي دالتون، لكني لم أفعل شيئًا.

أدخلته نقطة الشرطة فحبسته، ثم أرسلت برقية إلى السُّلطات في فورت وُرث، وطلبوا مني أن أعود بدالتون إليهم لمثل أمام المحكمة.

أوَدع دالتن ومن وجدنا من عصابته بعدها في السجن لعدة أشهر، دون كفالة.

خلال العامين بين الجريمة والاعتقال، مات عدد من

الشهود وترك بعضهم الآخر الولاية. والنتيجة، كما توقعتم، لم نجد شهودًا للمثول أمام المحكمة، ومن ثم تم الإفراج عنه.

رغم غضبي مما حدث، لكني تذكرت المصادفة التي أرسلت بالرجل إلى حُضني حرفيًّا، وكيف داس رفيقه قدمي فلفت نظري إليهما، وتذكرت المقولة: انتبه لمن تدعس قدمه.

جريمة الطبيب المنحرف

اعتقال الجاني، ومحاولته الماكرة للفرار

في عام 1873، تعرفت إرملة لها أولاد كبار على طبيب يهودي يُدعى دكتور سولومون شتاينمان، يمارس الطب منذ وقت قريب في روزفيل، بنسلفانيا.

للأرملة -السيدة بوردمان – عدة آبر نفط في مزرعتها، وقد جنت منها مبلغًا محترمًا من المال. تمتع الطبيب الأعزب في خير الأرملة غير عابئ بكونها أمًا لشابين في عمره. خلال وقت قصير، سحب منها الطبيب عشرة آلاف دولار بزعم استثماره في مشروع مُربح، لكن بدلًا عن ذلك، هرب إلى مكان غير معروف.

أبلغني ولدي لأرملة بالنصب الذي وقع لأمهما، وطلبا مني العثور على المحتال والقبض عليه.

حاولت العثور عليه، وبدا لي أن ذلك مستحيل؛ فلم يخبر أحدًا بنية الرحيل، ولم يترك خلفه أي خيط.

كان في بيت استضافة يقيم فيه قبيل رحيله، وتناول عشاءه ثم اختفى تاركًا أغراضه كلها في حجرته، كأن الأرض انشقت وابتلعته.

وقت خروجه من مسكنه، لم يكن هناك قطارات في هذا الموعد، فيبدو أنه رحل سيرًا.

هو رجل ضئيل، ذو بشرة داكنة، بلا لحية، ذو شعر أجعد.

بعد خمسة أشهر من اختفائه، قرأت خبرًا في الجريدة عن اعتقال يُدعى لويس بتهمة خطأ طبي في ميتشجن. قرأت أوصاف الطبيب المذكور، فوجدتها تطابق الأوصاف لدي، وانطقت إلى مدينة باي في متشجن، حيث مكتب الطبيب لويس المذعوم، فوجدته هناك بعدما خرج بكفالة قدرها ألفان وخمسمائة دولار، وتأكدت أنه هو الدكتور شتاينمان الذي ابلِغت انه متهم في جرية نصب اخرى وارسلوا لي أوراق اعتقاله.

غادرت معه مدينة باي، بعدما فتشته وصادرت متعلقاته الخاصة. ركبنا القطار ووصلنا ميتشجن بعد الظهيرة ومنه ركبنا آخر إلى كليفلاند وأمضينا إلى في كابينة قطار مشتركة، وتذكر عزيز القارئ أنني صادرت كل ما معه من أغراض. في الثانية صباحًا غفوت من التعب، واستقظت فزعًا على رائحة كلوروفوم قوية. الكابينة مظلمة، لكني ممجت يدي فأمسكت يد الطبيب التي تحمل منشفة تضغط بها على أنفي. دفعت ذراعه وقذفته خارج الكابينة إلى الممر، فصرخ ولفت نظر حارس القطار عند نهاية العربة. شحت له الموقف، فأمر ربان القطار أن يوثق حتى نصل إلى كليفلاند.

لا أعرف كيف كانت بحوزة الطبيب زجاجة كلوروفوم وقد فتشته بعناية، وفطنت إلى أنه ربما حصل عليا بينما كان

يبيت في السجن في ميتشجن قبل ركوبنا هذا القطار.

عانيت أثر الكلوروفورم لساعات، لكني رغم ذلك أوصلت سجيني إلى مدينة النفط في موعده، ومثل أمام المحكمة وحُكم عليه بخمس سنوات.

استطعت أن أستعيد خمسة آلاف دولار مما أخذه الطبيب من الأرملة، وهو المبلغ الوحيد الذي تبقى من ثروة الطبيب الملوثة.

سقوط جورج هيرسوج

قصة اعتقال مجرم دولي خطر

في بداية الثمانينيات، انهمرت الشكاوى من جهات الولايات الأربع على شركات السكة الحديد بسبب سرقة الأمتعة من على متن القطارات. ظلت الشكاور تتزايد حتى وصلت مكتبي.

تقصيت الأمر بجدية، وانتبهت إلى شخص يدعى جورج هيرسوج، وهو المسؤول عن الأمتعة في قطارات الشركات التبعة لشركة جولد حيث أعمل. كل جريمة حدثت، كان المذكور هو المسؤول عن الأمتعة فيها.

يعيش هورسوج في شقة خاصة في لونجفيو. أرسلت واحد من مساعدي –جورج هربرت- إلى لونجفيو، حيث قدَّم نفسه على أنه عامل قطارات، وأجَّر شقة في نفس البناية التي يعيش فيها هورسوج.

بعد أيام تعرف هربرت على المشبه فيه، وعرف مواعيد غيابه عن شقته. لكن سرعان ما أصيب هربرت بمرض، وعكف في حجرته لأيام.

استطعنا في هذا الوقت أن نحصل على نسخ لمفاتيح مسكن هيرسوج، ووفشتها هربرت فوجد فيها صندوقين ضخمين، ووجد فيها ما يمكن أن نطلق عليه كنوزاً من

أسلحة نادرة مفقودة من أثرياء ورجل قانون. وجد هربرت كذلك مجوهرات وأسلحة رئيس الشرطة في سانت لويس، وقتما كان يعمل هربرت شرطيًا فيها وكان يعرف الرجل وزوجته جيدًا ويذكر أغراضهما.

أرسل لي هربرت بتفاصيل ما عثر عليه، لإابلغت السيد هاريس رئيس الشرطة السابق الذي أكد لي أن ما عثر عليه محققي يخصه.

عثر هربرت كذلك على ما تم الإبلاغ عن فقده خلال رحلات القطار؛ وهي في أغلبها مجوهرات ثمينة. اعتقلناه على الفور وحُكم عليه بأربعة أعوام في السجن مع رد المسروقات المتبقية لأصحابها.

عرفنا في المحاكمة أن هيرسوج قد صاغ مفاتيح من كل حجم وشكل، وكلما خلا لنفسه في عربة الأمتعة، فتش الأغراض وانتقى منها ما غلا ثمنه وخف وزنه، ثم أغلق الأمتعة كما كانت، فلم يكن أحد يكتشف السرقة إلا متأخرًا.

لم يكن اعتقال هذا المجرم راحة فقط لشركات جولد، بل راحة لكل القطارات والمسافرين على كل الخطوط.

النهاية